الفصل الأول
نهر النيل بحدود مدينة القاهرة

مقدمة : مكانة نهر النيل عند المسلمين :

نهر النيل أعظم نعمة وهبها الله سبحانه وتعالى لمصر وأهلها على مر التاريخ ، فهو لهم حياة ووجود ، ورزق وسعود ، وجمال وخلود . وقد وجد النيل حظه من التبجيل والتقدير فى زمن حكم الفراعنة وما تلاهم من الاغريق والرومان ، كما حظى فى حظيرة الإسلام بمكانة دينية مرموقة وحسبه ذكره فى القرآن الكريم وفى كتب الحديث النبوى الشريف ، وقد نعته المسلمون بأنه «سيد الأنهار» وأنه « بحر النيل المبارك» .

ولأن النيل شريان الحياة لمصر فقد عنى به حكام مصر على مدى التاريخ الإسلامى عناية كبيرة للحفاظ على جريانه وضبطه الضبط الصحيح بما يكفل لهم حياة آمنة ، فأقاموا السدود والجسور عندما كان يطغى ويزيد عن الحد الذى يكفل لهم حياة وزراعة آمنة ، ويحفروه عندما يقل عن الحد وتعوق الرمال والنباتات جريانه ، وكان المصريون يدفعون الثمن دائما أرواحهم وأموالهم وأملاكهم فى تلك المشاريع ، كما عنوا بدراسته ووصفه ورصد أوقات فيضانه فأقاموا المقاييس لتتبع مقادير زيادته ونقصانه ، واحتفلوا الاحتفالات البهيجة الرائعة بمواسم فيضانه ، وأقاموا النظم لربط سنتهم الهجرية بالسنة الشمسية التى تسير عليها مواعيد فيضان النيل والزراعة وجمع أموال الخراج .

وكتب المؤرخون والجغرافيون والرحالة المسلمون الكتب والمقالات لدراسة النيل ووصفه ودراسة فروعه وخلجانه وجسوره وقناطره ومقاييسه ، وحظى النيل فى مجال الأدب بنصيب وافر فأفاض الأدباء فى وصفه والتغنى به ونثرا مما خلّف أدبا جما وتراثا أدبيا خالدًا .

وإذا كانت اليوم صيحات النداء للمحافظة على البيئة ترتفع وتتعالى ، فقد سبق الإسلام تلك الصيحات بزمان كبير ويتجلى ذلك فى الحفاظ على الأنهار ومنها نهر النيل ، فقد أجمع فقهاء المسلمون على أنه لا يجوز البناء على شاطئ النهر للسكنى ولا لغيرها إلا القناطر المحتاج إليها لأنها ملك للناس جميعا فلا يجوز التعدى عليها ، لذا فقد وضع الفقهاء «حرم» لتلك المجارى المائية لا يجوز البناء فيها بأى شكل من الأشكال فكان حرم العيون خمسمائة ذراع وحرم الأنهار ألف ذراع [1] .

وعن ذكر النيل فى «القرآن الكريم» فقد ورد فى عدة مواضع إما تصريحا أو تلميحا، وقد خصه الله سبحانه وتعالى بلفظ «اليم» التى تطلق أيضا على البحار فجاءت وقفا على نهر النيل دون غيره من الأنهار، جاء ذلك فى قوله تعالى عن سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ (٢)، وفى قوله سبحانه وتعالى أيضا ، ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ (٣).

وقد ذكر النيل بصفة ضمنية بمعناه فى قوله تعالى على لسان فرعون : ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ (٤) فالمقصود بالانهار فى هذه الآية هى نهر النيل وفروعه حيث كانت أرض مصر فى أيام فرعون عامرة بالقناطر والجسور بتدبير وتقدير حتى أن الماء كان يجرى تحت منازلهم وأقبيتها فيحبسونه كيف شاءوا ويطلقونه حيث شاءوا (٥)، كما فسر بعض المفسرين قوله تعالى أخبارا عن فرعون الذى حدد لسيدنا موسى عليه السلام موعدا لمقابلة السحرة ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ (٦)، أنه يعنى الاحتفال بوفاء النيل وكسر الخليج إذ أن العادة قد جرت منذ القدم على أن اجتماع الناس لتخليق المقياس يكون فى هذا الوقت (٧)، وفى قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ (٨) فسر المفسرون هاتين الآيتين أن الجنان كانت بأرض مصر بحافتى النيل من أوله إلى آخره على الجانبين جميعا ما بين أسوان إلى رشيد (٩).

---

(١) ابن الحاج (أبو عبدالله محمد بن محمد العبدرى الفاسى، ت ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م)، المدخل، ط١ (المطبعة المصرية بالأزهر، ١٩٢٩م، جـ١)، ص ٢٤٧.

(٢) سورة طه : الآية ٣٩. (٣) سورة القصص : الآية ٧.

(٤) سورة الزخرف : الآية ٥١.

(٥) قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، (ط دار المعارف، ١٩٧٨م)، ص ١٠٤.

(٦) سورة طه : الآية ٥٩.

(٧) النويرى (شهاب الدين أحمد عبد الوهاب النويرى، ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م)، نهاية الأرب فى فنون الأدب (ط دار الكتب، ١٩٢٤)جـ١، ص ٢٦٤، الكتبى (محمد بن إبراهيم بن يحيى بن على الشهير بالوطواط الكتبى، ت ٧١٨هـ/ ١٣١٨م)، مباهج الفكر ومناهج العبر، جـ١، (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٥٩ علوم طبيعية) ورقة ٨٦، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٦١.

(٨) سورة الشعراء : الآيتين ٥٧، ٥٨.

(٩) السيوطى (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى، ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة، ١٩٦٧)، جـ٢، ص ٣٤٦.

أما ما خص النيل من الحديث المنسوب إلى الرسول ﷺ فكثير، قليل منها ذكر فى صحيحى مسلم والبخارى خصوصا فى أحاديث الاسراء والمعراج فقد ورد عن أنس بن مالك فى حديث المعراج ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا ورقها مثل آذان الفيلة قلت : ما هذا يا جبريل؟ فقال : هذه سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان قلت : ما هذا يا جبريل؟ قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة وأما الظاهران فهما النيل والفرات[1].

وفى صحيح مسلم حديث ينتهى سنده إلى أبى هريرة قال : « قال رسول الله ﷺ سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة»[2].

وقد أورد المقريزى فى خططه ما جاء فى كتاب غريب الحديث لابن قتيبة «نهران مؤمنان ونهران كافران أما المؤمنان فالنيل والفرات، وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ، وإنما جعل النيل والفرات مؤمنين على التشبيه لأنهما يفيضان على الأرض ويسقيان الحرث والشجر بلا تعب فى ذلك ولا مؤنه، وجعل دجلة وبلخ كافرين لأنهما لا يفيضان على الأرض ولا يسقيان إلا شيئا قليلا وذلك القليل بتعب ومؤونة فهذان فى الخير والنفع كالمؤمنين وهذان فى قلة الخير والنفع كالكافرين»[3].

ور وى ابن عبد الحكم عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال « نيل مصر سيد الأنهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده فتمده الأنهار بمائها، وفجر الله له عيونا فأجرته إلى ما أراد الله عزوجل، فإذا انتهت جريته أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره»[4].

وإذا تتبعنا بقية الأحاديث المنسوبة للرسول ﷺ فيما يخص النيل لوجدناها كثيرة جدا، وتبدو هذه الأحاديث فى رأيى المتواضع أنها من الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة، وقد ورد ذكرها فى كتابات مؤلفى العصرين المملوكى والعثمانى لأنهم هالوا نهر النيل بصفة

(١) انظر : الألف المختارة من صحيح البخارى، تحقيق عبد السلام هارون، جـ٢، (نشر الخانجى، ١٩٧٩م)، ص ٧٧. النويرى، نهاية الأرب، جـ١، ص ٢١٣، المنوفى (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد، ت ٩٣١/ ١٥٢٥م)، الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد، (مخطوط بدار الكتب، رقم ٦٦ جغرافيا) ص ٩.

(٢) حديث مسلم، كتاب ٥١ حديث ٢٦، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٣٤٠.

(٣) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥١.

(٤) ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله، ت ٢٥٧هـ/ ٨٧١م)، فتوح مصر وأخبارها، (ط ليدن، ١٩٢٢م)، ص ١٤٩، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥٠.

القداسة والإيمان وأنه سيد الأنهار، وقد سخر الله له كل الأنهار والعيون لتمده بمائها وقت زيادته، وهو يجرى بوحى من الله وهو نهر الخمر فى الجنة [١].

أما عن الكتابات العلمية للجغرافيين والرحالة والمؤرخين المسلمين عن نهر النيل وفيضانه فكثيرة جدا إلا أن معظم كتاباتهم تعتمد على ما نقلوه من علماء الأغريق والرومان وتملؤها الخرافات والأساطير خصوصا فى الكلام عن منابعه، أما عن جريان النيل فى أرض مصر فقد اتسمت بالدقة [٢].

أولا: تحول شاطئا النيل بحدود مدينة القاهرة منذ الفتح الإسلامى حتى سنة ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م

تحول مجرى النيل منذ الفتح الإسلامى لمصر حتى العصر الحديث ثمان مرات على شاطئه الشرقى ومرتين على شاطئه الغربى [٣]، وقد تأثرت عمارة القاهرة وضواحيها نتيجة لتلك التحولات، وهذه التحولات إما طبيعية أو صناعية.

ويرجع المرحوم الأستاذ «محمد رمزى» هذه التحولات المتكررة إلى ما كان عليه اتساع مجرى النيل بين شاطئيه فى الأزمنة السابقة وبسبب قوة جريان ماء النيل وقت الفيضان، حيث تتسلط هذه القوة على أراضى الجزر وعلى الأراضى المرتفعة الواقعة على جانبى مجرى النيل وعلى الأخص الأجزاء التى لا تتحمل مقاومة تيار الماء الجارف فيأكلها النهر بتيار وينقل طينها من مكانه الأصلى ويطرحه بجوار الشواطئ البعيدة عن تأثير قوة جريان ماء النيل وأن قوة وسرعة جريان التيار وقت الفيضان تخف بجوار الشواطئ فى المناطق التى يكون فيها مجرى

---

(١) للمزيد فى هذا الموضوع انظر: ابن مماتى (أبو المكارم اسعد بن مهذب، ت ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م)، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال (القاهرة، ١٩٤٣) ص ٧٤ ـ ٧٥، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥٠ ـ ٥١، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٣٤٠، الحجازى (شهاب الدين أحمد بن محمد، ت ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م)، نبل الرائد فى النيل الزائد، (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٨٠ جغرافيا)، ص ٨ ـ ٩، المنوفى، الفيض المديد، (مخطوط)، ص ١٢، ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، مركز تحقيق التراث، (مطبوعات دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩م) ص ١٥٧ ـ ١٧٧، حمدى المناوى، نهر النيل فى المكتبة العربية، (القاهرة، ١٩٦٦)، ص ١٧ ـ ٢٣، قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى، ص ١٠٤ ـ ١٠٦.

(٢) عن هذا الموضوع انظر مثلا: المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٥١ ـ ٥٧.

(٣) عالج المرحوم الأستاذ محمد رمزى هذا الموضوع على أتم وجه فهو الذى حصر تحولات النيل بالقاهرة وحقق أماكنها فى مقالته: الجغرافية التاريخية لمدينة القاهرة (شاطئا النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة وما طرأ عليها من التحولات من الفتح العربى إلى اليوم)، مجلة العلوم، المجلد الرابع، السنة التاسعة، ١٩٤٢، ص ٤٩٧ ـ ٥٢٣.

النيل واسعا فيرسب الطمى الذى تحمله المياه تدريجيا على الجانب الذى تضعف فيه قوة التيار، وعلى أساس هذه النظرية تكرر حدوث طرح البحر فى مجرى النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة [١].

وكانت هذه الأراضى التى نتجت عن ظاهرة طرح النهر تبقى فترة لينة وغير متماسكة حتى تتماسك مع الزمن وتصلح لأغراض البناء عليها والزراعة بها [٢].

وقد كان النيل وقت الفتح العربى لمصر يمر شاطئه الشرقى تحت الباب الغربى لقصر الشمع (حصن بابليون) وتحت جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة ثم يسير إلى الشمال مارا فى الجهة الغربية من جامع السيدة زينب على بعد ثلاثمائة متر من موقع الجامع الحالى، ثم يسير النيل فى طريقه مارا فى الجهة الغربية من ميدان عابدين فشارع عماد الدين ومنه إلى قرية أم دنين حيث يوجد الآن جامع الفتح (أولاد عنان) بميدان رمسيس ثم إلى منية السيرج، وكانت الأراضى الواقعة بين هذا الشاطئ وبين جبل المقطم تجاه القاهرة كلها أرض زراعية يخترقها الخليج المصرى من الجنوب للشمال [٣] (شكل ٥).

وأما من الجهة الغربية فكان النيل بعد أن يمر تحت سكن مدينة الجيزة يسير إلى الشمال مارا تحت سكن الدقى ثم يسير فى طريقه إلى الحوتية (العجوزة حاليا) ومنها إلى امبابة [٤].

وهذه التحولات كما حصرها الأستاذ محمد رمزى، هى:

(١) **التحول الأول** : حدث سنة ٦٩هـ/ ٦٨٨م وقت ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر حيث طرح البحر أرضا جديدة اتصلت بالشاطئ القديم فى المسافة الواقعة الآن بين ساحل أثر النبى وبين النقطة التى يتلاقى فيها بشارع السد البرانى بشارع بيرم التونسى (سكة المدبح سابقا) بقسم السيدة زينب [٥].

---

(١) محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٤٩٨، وانظر أيضا Kubiak, Al Fustat, Its Foundation and Early Urban Development, Cairo, AUC. 1987. P. 47.

(٢) اندريه ريمون، فصول التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية «مجموعة مقالات» ترجمها زهير الشايب، نشر روز اليوسف، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٨٩، Clergel (M), Le Cairo, Etude De Géographie Urbaine et D'histoire Economique, Le Cairo, 1934, P. 194, Haswell, Cairo, Origin and Development, Some Notes on the Influence of the River Nile and Its Changes, Bulletin de la Societe Royale de Geographie D'Egypte. Vol. II (3-4) December 1922, pp. 171 - 176.

(٣) محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٤٩٧. (٤) نفس المرجع والصفحة.

(٥) نفس المرجع، ص ٥١١ ـ ٥١٢، وقد استنتج المرحوم محمد رمزى ما ذكره من خلال ما كتبه المقريزى عن ساحل النيل فى الخطط، جـ١، ص ٣٤٣، جـ٢، ص ١١٣.

(٢) **التحول الثانى** : ظهر هذا الطرح حوالى سنة ٣٣٠هـ/ ٩٤١م أى فى زمن الدولة الأخشيدية إذ طرح النهر أرضا جديدة أوصلته بالشاطئ القديم الأصلى فى المسافة الواقعة الآن بين جامع الطيبى بشارع الديورة بقسم السيدة زينب وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع التحرير (الخديوى إسماعيل سابقا) بشارع محمد فريد (جزء من شارع عماد الدين سابقا)[١].

(٣) **التحول الثالث** : ظهر حوالى سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م أى فى زمن الدولة الفاطمية إذ طرح البحر (النهر) أرضا جديدة اتصلت بالطرحين السابقين فى المسافة الواقعة بين جامع الطيبى وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع عرابى (توفيق سابقا) بشارع رمسيس (الملكة نازلى سابقا) [٢].

(٤) **التحول الرابع** : ظهر حوالى سنة ٥٦٠هـ/ ١٢٥٢ أى فى أوائل حكم الدولة المملوكية البحرية إذ طرح البحر أرضا جديدة متصلة بالطرح الثالث فى المسافة الواقعة جامع الطيبى وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع النباتات بشارع إبراهيم باشا نجيب بجاردن سيتى وبين النقطة التى يتقابل فيها شارع مريت باشا بشارع رمسيس [٣].

(٥) **التحول الخامس** : ظهر حوالى سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م واتصلت أرضه بالطروح السابقة فى المسافة الواقعة بين جامع سليمان باشا الفرنساوى بشارع كورنيش النيل (عمرو بن العاص سابقا) بمصر القديمة وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع مريت بشارع رمسيس [٤].

(٦) **التحول السادس** : وهى أكبر طرح ظهر لمدينة القاهرة وقد حدث سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م، وتمثل أرضه الآن قسم بولاق بأكمله وجزء من قسم الأزبكية والأرض الواقعة بين السكك الحديدية الموصلة إلى الصعيد وبين شارع جزيرة بدران من قسم روض الفرج، وطمت أيضا أرض السيالة التى كانت فاصلة بين أراضى منية السيرج والشرابية

---

(١) محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٥١٢ ـ ٥١٣، وقد استنتج الأستاذ رمزى ما ذكره اعلاه من خلال ما كتبه المقريزى فى الخطط عن ساحل النيل بمدينة مصر، جـ١، ص ٣٤٤. وانظر أيضا : على مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، (ط بولاق، ١٣٠٦هـ)، جـ١٨، ص ١١٦.

(٢) محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٥١٣ ـ ٥١٤، وقد استطاع الأستاذ رمزى تحديد هذا الطرح من خلال ما ذكره المقريزى فى الخطط فى كلامه عن المنشأة، جـ١، ص ٣٤٥. وفى كلامه على الميدان الصالحى، جـ٢، ص ١٩٨ وفى كلامه عن اللوق، جـ٢، ص ١١٧.

(٣) محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٥١٤، وقد استنتج الأستاذ رمزى ذلك من خلال ما كتبه المقريزى فى الخطط فى كلامه عن الصناعة، جـ٢، ص ١٩٨.

(٤) محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٥١٥، وقد استنتج الأستاذ محمد رمزى ذلك من خلال ما كتبه المقريزى فى الخطط عن ساحل النيل بمدينة مصر، (جـ١، ص ٣٤٥) وعن الصناعة، (جـ٢، ص ١٩٧).

وميدان رمسيس من جهة وبين جزيرة الفيل التى بها الآن قسما شبرا وروض الفرج من جهة أخرى [١].

(٧) **التحول السابع** : ظهر هذا الطرح فى سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م فى المسافة الواقعة بين مبنى فندق هيلتون النيل وبين النقطة التى يتقابل فيها شارع أبو الفرج بشارع جزيرة بدران [٢].

(٨) **التحول الثامن** : ظهر فى سنة ١٢٤٦ هـ/ ١٨٣٠م وشمل المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بفم ترعة الإسماعيلية ومن الغرب بمجرى النيل الحالى ومن الجنوب من حد مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب حاليا ومن الشرق بشارع المطبعة الأهلية ببولاق وشارع أبو الفرج وشارع جسر طراد النيل، وهذا هو الطرح الثامن والأخير تجاه القاهرة [٣].

يتضح مما سبق أن شاطئ النيل الشرقى الحالى لمدينة القاهرة استجد جميعه بعد الفتح العربى لمصر من أثر النبى جنوبا إلى فم ترعة الإسماعيلية شمالا. (انظر الخريطة).

أما عن الشاطئ الغربى للنيل بالجيزة تجاه القاهرة فقد طرأ عليه تحولان الأول بعمل هندسى تم بين سنتى ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٦٥م فى عهد الخديوى إسماعيل، والطرح الثانى أعقبه فى سنة ١٨٧٠م كنتيجة ترتيب على التحول الأول [٤].

ثانيا: الاهتمام بحفر النيل وإقامة الجسور عليه لضبطه بطول القاهرة حتى نهاية العصر العثمانى:

كان اهتمام ولاة مصر وخلفائها وملوكها وسلاطينها حتى بداية دولة المماليك منصبا على فرع سيالة الروضة وذلك لمجاورته للفسطاط ومصر القديمة ـ مركز التجمع السكانى والعمرانى حتى العصر الأيوبى ـ وكذلك لعدم تعمير الخطط على النيل فى مواجهة القاهرة إلا فى العصر المملوكى بوجه خاص، ولما عمرت الخطط فى العصر المملوكى اهتم السلاطين بالنيل فى المسافة بين الحد الشمالى لمصر الفسطاط حتى شبرا.

وقد تم الحفاظ على مجرى فرع الروضة (سيالة الروضة) بفضل التدخل البشرى لحمايته على مدى تاريخ مصر الإسلامى، ولم يضيع كما ضع الفرع الذى كان يحيط بجزيرة الفيل بالقاهرة، وكان حرص حكام مصر على الاعتناء بفرع الروضة وخاصة أيام الأيوبيين

---

(١) نفسه ص ٥١٦. (٢) نفسه، ص ٥١٦.

(٣) نفسه، ص ٥١٨.

(٤) انظر بالتفصيل، محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣.

والمماليك يرجع لأنه مصدر تزويد مدينة الفسطاط بالماء وكذلك وقوع ساحل الفسطاط عليه وهو أكبر موانئ مصر النيلية آنذاك خصوصا بعد أن طم ميناء المقس الذى كان ميناء القاهرة وتحول ميناؤها إلى بولاق بعد ذلك بقرنين.

وكان الاهتمام بفرع الروضة يتم بأسلوبين أولهما حفره، وثانيهما تعلية قاع فرع الجيزة وعمل السدود الحجرية به حتى يتجه الماء إلى فرع الروضة.

حفر سيالة الروضة قبل العصر المملوكى:

ظهرت الحاجة الملحة للاهتمام بحفر سيالة الروضة فى زمن الدولة الأخشيدية (٣٢٣ـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م) ففى سنة ٣٣٦هـ/ ٩٥٠م جف النيل فى فرع سيالة الروضة، واضطر سكان الفسطاط أن يجلبوا ماء النيل من فرع الجيزة، لذلك تولى الأستاذ كافور الأخشيدى مقدم أمراء الدولة لأنوجور بن الأخشيد حفر الروضة فتم حفره ودخل الماء إليه وانتفع به أهل الفسطاط [١].

ومع الزمن كان النيل ينحسر عن البر الشرقى للفسطاط إلى الغرب لذا كانت تنكشف أراضى جيدة على ساحل مصر الفسطاط وتكثر الرمال بسيالة الروضة ويضعف جريان الماء بها ويتحول إلى الفرع الغربى ناحية الجيزة، ونظرا لتراكم الرمال بسيالة الروضة سنويا صار قاعها يخاض بالأقدام، وكانت لا تملأ إلا فى وقت الفيضان فقط [٢].

وقد حدث أن انحسر الماء عن ساحل مصر القديمة قبل سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م وصار يقل فى زمن احتراق النيل بعد ذلك حتى صار الطريق إلى المقياس يابسا، فلما كان فى سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م خاف السلطان الملك الكامل محمد (٦١٥ ـ ٦٣٥هـ/ ١٢١٨ ـ ١٢٣٧م) من تباعد النيل عن العمران بمصر فأمر بحفر فرع الروضة من جهة دار الوكالة [٣] إلى صناعة

(١) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٤٤، السيوطى، كوكب الروضة، (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٦٤ تاريخ)، ورقة رقم ٣٦.

(٢) المقريزى، نفس المصدر والصفحة.

(٣) دار الوكالة هذه كان أصلها دار الملك التى كانت عبارة عن منظرة (قصر) بناها الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م، وسكنها وحول إليها الدواوين من القصر فصارت بها، فلما قتل الأفضل صارت دار الملك هذه من جملة متنزهات الخلفاء، وكان بها بستان عظيم، ومازالت عظيمة إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية فجعلها الملك الكامل محمد دار متجر، ثم عملت فى أيام الملك الظاهر بيبرس دار وكالة.

وقد ذكر «المقريزى» أن موضعها كان ما وراء رحبة الخروب بجوار المدرسة المعزية وبقى منها جدار يجلس تحتها بياعو الحناء. الخطط، جـ١، ص ٤٨٣، ويمثل موقع دار الملك الآن المنطقة الواقع بها قسم شرطة مصر القديمة بجوار جامع عابدى بك (أثر رقم ٥٢٤) الذى حل محل المدرسة المعزية.

التمر الفاضلية [1]، واستمر العمل فيه مدة ثلاثة أشهر من مستهل شهر شعبان إلى آخر شهر شوال، حتى صار الماء يحيط بجزيرة الروضة دائما بعد أن كان فرع الروضة جدولا رقيقا [2].

وقد كان هذا العمل بمثابة مشروع قومى فقد ذكر المؤرخون أن الملك الكامل عمل فيه بنفسه وألزم الأمراء وأعيان الناس بالحفر إلى جانب عامة أهل القاهرة، وقد تم توزيع نفقات الحفر على الدور التى تقع بالقاهرة ومصر والروضة [3].

وكان الاهتمام الأعظم بفرع سيالة الروضة على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ ـ ٦٤٧هـ/ ١٢٣٩ ـ ١٢٤٩م) وذلك لبناء قلعته الصالحية جنوب جزيرة الروضة، فأراد أن يحيط الماء بالجزيرة طول العالم، فغرّق عدة مراكب محملة بالحجارة فى فرع النيل الغربى تجاه الجيزة حتى يتحول الماء إلى فرع الروضة، وسار فى كل سنة يحفر فرع الروضة بجنده ونفسه [4]، وكان يتم طرح الرمل فى البقعة التى عمر فيها الملك الناصر محمد بن قلاوون جامعه الذى سمى الجامع الناصرى الجديد [5] على النيل، ونتج عن ذلك أن شرع خواص السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بالعمارة على ساحل مصر من موضع الجامع الناصرى الجديد إلى المدرسة المعزية [6].

---

(١) صناعة التمر الفاضلية كان أصلها دار وقف على فكاك الأسرى بناها القاضى الفاضل وعرفت بعد ذلك بصناعة التمر الفاضلية. ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١٢، ويمثل موقعها الآن منطقة فم الخليج.

(٢) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٣) ابن المقفع (ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين)، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، جـ٤، (القاهرة، ١٩٧٤)، ص ٥٦ ـ ٥٧. المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٤٥.

(٤) المقريزى، نفسه.

(٥) الجامع الناصرى الجديد بناه الملك الناصر محمد سنة ٧١٢هـ، وقد اندثر الآن وكان موقعه المنطقة التى يخترقها شارع السكر والليمون المتفرع من شارع كورنيش النيل بمصر القديمة بفم الخليج. ولمزيد من التفاصيل عنه، انظر ما يلى ص ٤١.

(٦) ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن ايدمر، ت ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٦م)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، (ط بولاق، ١٨٩٣م)، جـ٤، ص ٧٧، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٤٥، السلوك جـ١، ص ٣٤١، السيوطى، كوكب الروضة (مخطوط) ورقة ٣٧.
المدرسة المعزية أنشأها الملك المعز ايبك سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م ومحلها الآن جامع عابدى بك (أثر رقم ٥٢٤) المطل على شارع كورنيش النيل بمصر القديمة وما حوله. ولمزيد من التفاصيل عنها، انظر: ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ٩٢ ـ ٩٣، محمد رمزى، تعليقه على النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، جـ٧، ص ١٤.

حفر النيل بطول القاهرة فى العصر المملوكى:

استمر الاهتمام بحفر فرع الروضة فى العصر المملوكى، وقد اهتم بذلك السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ/ ١٢٥٩ ـ ١٢٧٧م) ففى سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م تم حفر فرع سيالة الروضة، وقد شارك السلطان بنفسه وعساكره فى الحفر [١].

وفى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩ ـ ٧٤١هـ/ ١٣٠٩ ـ ١٣٤٠م) ازداد العمران على ساحل مصر وأتم ما كان قد بدأه الصالح نجم الدين أيوب من بناء وعمل بساتين على الساحل، فأتاح الناصر محمد للأمراء والناس إقامة الدور والقصور والمناظر والمنشآت الأخرى على ساحل النيل من دير الطين (دار السلام حاليا) جنوبا حتى منشأة المهرانى (القصر العينى حاليا) شمالا [٢].

أما أعظم مشروع للاهتمام بحفر سيالة الروضة والجانب الشرقى للنيل كله ـ شرقى الجزيرة الوسطى حتى بولاق ـ فقد تم على يد الملك المؤيد شيخ [٣] (٨١٥ ـ ٨٢٤هـ/ ١٤١٢ ـ ١٤٢٠م)، ففى شهر صفر ٨١٨ هـ/ ١٤١٥م وقع الشروع فى حفر الرمال التى أحدثت ما بين الجامع الناصرى الجديد خارج مدينة مصر وبين جامع الخطيرى ببولاق [٤]، وسبب ذلك أن النيل فى ذلك الوقت قد غير مجراه إلى الغرب عما كان سابقا وصار جانب النيل الشرقى فيما بين طرا وطرف جزيرة الروضة رمالاً لا يعلوه الماء إلا فى أيام الفيضان فقط، وصار معظم الماء يمر من غرب جزيرة الذهب ويستمر تياره يسير بقوة غرب جزيرة الروضة وغرب الجزيرة الوسطى، أما الجانب الشرقى من تلك الجزر فقد زادت الرمال بها زيادة كبيرة وتكاد تكون منقطعة الماء فخربت معظم الأماكن والخطط على البر الشرقى للنيل مثل منشأة المهرانى [٥]،

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ١، ص ٥٤٤.
(٢) المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٤٥.
(٣) المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٣٠٢.
(٤) جامع الخطيرى ذكره «المقريزى» وقال أنه بناحية بولاق وكان موضعه قديما مغمورا بالماء إلى نحو سنة ٧٠٠هـ، ولما انحسر النيل زرع مكانه وصار موضعه متنزها يجتمع عنده الناس ثم بنى مكانه دار فاشتراها الأمير عز الدين ايدمر الخطيرى احد الأمراء مقدمى الألوف فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون فهدم الدار التى كانت مكان الجامع وكانت تعرف بدار الفاسقين وبنى مكانها هذا الجامع وسماه جامع التوبة وبالغ فى عمارته وزخرفته وقد تم بناءه سنة ٧٣٧هـ، وقد طغى النيل عليه عدة مرات فهدم وجدد مرات عديدة.
انظر: الخطط، جـ٢، ص ٣١٢.
وأقول أن البقايا الأثرية للجامع كانت موجودة لوقت قريب وهو موقع ومسجل بفهرس وخريطة القاهرة للآثار الإسلامية (لوحة ١ أثر رقم ٣٤١) إلا أن تلك البقايا قد أزيلت حاليا وبنى موضع الجامع جامع جديد البناء، وهو يقع بأول شارع الخطيرى المتفرع من شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) إلى الشرق قليلا من كوبرى أبو العلا.
(٥) عن منشأة المهرانى، انظر ما يلى، ص ٤٢.

ومنشأة الكتبة [١]، وخط موردة البلاط [٢]، وخط زريبة قوصون [٣]، وخط فم الخور وحكر ابن الأثير [٤]، لانقطاع الماء عنه. وكانت تلك الأمكنة فى غاية العمارة فاتفق أن السلطان المؤيد ركب إلى هذه النواحى وكان عهده بها عامرة فسأل عن سبب خرابها فأخبريه فأراد حفر ما بين الجامعين الناصرى والخطيرى ليعود الماء إليها شتاءاً وصيفا كما كان أولا ثم يشرع فى الأمر بعمارتها [٥].

وقد أمر المؤيد فى يوم السبت عاشر صفر ٨١٨هـ/ ١٤١٥م أن يشرع فى الحفر وندب له الأميرين كزل العجمى وسودون القاضى، وتم تجهيزهم بما يلزمهم من أبقار لجرف الرمال وأدوات الحفر وغير ذلك، وقد استمر العمل بقية شهر صفر وشهر ربيع الأول [٦].

وكان العمل فى هذا الحفر على درجة كبيرة من الأهمية بحيث أنه يكاد يكون الناس جميعا قد شاركت فيه، وقد شدد المؤيد فى العمل وهدد كل من يتوانى عن انجازه فخرج الناس للعمل على هيئة اشبه بأيام النزه، وقد شارك المؤيد شيخ بنفسه وامراءه ووجوه دولته فى العمل [٧].

---

(١) عن منشأة الكتبة، انظر ما يلى، ص ٤٩.
(٢) عن خط موردة البلاط انظر ما يلى، ص ٥١.
(٣) عن خط زريبة قوصون انظر ما يلى، ص ٥٣.
(٤) عن خط فم الخور وحكر ابن الأثير انظر ما يلى، ص ٥٥.
(٥) المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٣٠٢ـ٣٠٤، ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على بن محمد ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، انباء الغمر بابناء العمر، تحقيق حسن حبشى، (القاهرة، ١٩٧٦)، جـ٣، ص ٥٤، العينى (بدر الدين محمود العينى، ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، تحقيق عبد الرزاق القرموط، (بدون ناشر، القاهرة ١٩٨٥)، ص ٢٢٣، ابن تغرى بردى (أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الاتابكى، ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، تحقيق جمال محرز، وفهيم شلتوت، جـ٤، (القاهرة، ١٩٧٠م) ص ٢٧.
(٦) نفس المصادر والصفحات.
(٧) ذكر المؤرخون فى هذا الشأن «أنه فى يوم الأثنين ثانى ربيع الآخر سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، ركب السلطان من قلعة الجبل بأمرائه ومماليكه ووجوه دولته وسار إلى حيث العمل فى حفر البحر تجاه منشية المهرانى، ونزل فى مخيم قد نصب له هناك، ونودى بخروج الناس للعمل فى الحفير، وكتبت حوانيت الأسواق كلها فخرج فى ذلك اليوم الناس طوائف طوائف ومع كل طائفة الطبول والزمور وهم فى لهو ولعب وغلقت الأسواق كلها واقبلوا على العمل ونقلوا التراب والرمل من غير أن يكلف أحد منهم فوق طاقته، وعمل جميع العسكر أيضا من الأمراء والمماليك وجميع أرباب الدولة واتباعهم، ثم ركب السلطان بعد العصر، وقد مدت أسمطة جليلة فكان يوما بالهزل واللهو أشبه منه بالجد، ووقف السلطان حتى فرض على كل أمير من الأمراء حفر قطعة بعينها له وعاد إلى القلعة واستمر العمل والنداء كل يوم بالقاهرة أن يخرج أهل الأسواق وغيرهم للعمل فى الحفير». انظر: المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٣١٣، ابن حجر، انباء الغمر، جـ٣، ص ٥٥، العينى، عقد الجمان، ص ٢٢٤، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢٠ـ٢١.

وأصبح الأمراء الكبار يخرج واحد منهم يوميا ومعه طائفة من طوائف الشعب حتى صوفية الخوانق شاركت فى العمل، واستمر العمل طوال شهر ربيع الآخر وأثناء شهر جمادى الأولى أيضا [١].

وقد صاحب ذلك الحفير عمل جسر يمتد من آخر خرطوم الروضة أى الطرف الشمالى لجزيرة الروضة إلى جزيرة أروى (الجزيرة الوسطى) ليتحول جريان ماء النيل إلى الشاطئ الشرقى فيمتلأ الخليج الناصرى شتاءا وصيفا، وكذلك يجرى فى الخلجان والترع الأخرى المتفرعة من النيل مثل خليج الزريبة [٢]، فلما قوى ماء النيل فى جمادى الأولى والناس منهمكون فى عمل الحفير والجسر وزاد الماء وبلغ أثنى عشر ذراعا، أكل الجسر وما فاد من تعب الناس فيه شيئا وراح على الناس تعبهم [٣].

ومن الطريف أن العمل فى ذلك المشروع اتسم بالخفة والظرف دون غيره من المشاريع التى سادت فيها السخرة وهلك فيها بعض الناس من شدة العمل، إذ ذكر «المقريزى» الذى عاصر عمل هذا المشروع . . . خرج ركب الأمير الطنبغا القرشى بالفيل والزرافة بعدة طبول وزمور، وقد اجتمع هناك معظم الناس من الرجال والنساء للفرجة، فكثرت سخريتهم وتضاحك بعضهم على بعض [٤].

وكما هو معروف عن المصريين خفة الدم فقد ألف الناس فى عمل الحفير والجسر البلاليق (وهى الأغانى الشعبية الهزلية) وصاروا يتغنون بها ويتضاحكون ويتهكمون على أنفسهم، فقد ذكر ابن اياس . . . انه لما زاد النيل وبلغ اثنى عشر ذراعا أكل ذلك الجسر وقد خرج المؤيد إلى الشام بسبب عصيان النواب عليه طلع مكان ذلك الجسر الذى عمره السلطان كوادى رمل [٥]، فتهتك الناس على الفرجة عليهم، ونصبوا هناك الخيام على الروضة والمنشية ولا سيما العسكر كان غائبا مع السلطان، وصنفوا أهل مصر فى ذلك غنوة وهم يقولون هذه :

يـــارايـــح الـــشـــام غـــادى ... ســـلِّـــمْ وبـــوس الأيـــادى
وقـــل لجـــيـــش المـــؤيـــد ... آدى الحـريم فـى الـكـوادى [٦]

---

(١) المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٣١٥، العينى، عقد الجمان، ص ٢٢٣.
(٢) كان خليج الزريبة يخرج من موردة الجبس بجوار مخرج الخليج الناصرى وموقعه الآن بجاردن سيتى بالقاهرة وكان يصب فى بولاق حيث يروى أراضيها، وانظر أيضا ما يلى ص ٣١٥.
(٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٤، ص ٣٠ـ٣٢، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢١.
(٤) المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٣١٣ـ٣١٤.
(٥) الكوادى كما يبدو هى قطع من الأرض ملينة بالرمال كانت محاطة بالماء على هيئة جزر صغيرة.
(٦) بدائع الزهور، جـ٢، ص ٢١.

عمل الجسور والسدود لضبط النيل بالقاهرة فى العصر المملوكى :

نظرا لوقوع القاهرة على الضفة الشرقية للنيل، واعتماد الناس على حاجاتهم من الماء عن طريق نهلهم من الشاطئ الشرقى للنيل من الفسطاط جنوبا حتى شبرا شمالا، وكان يقطع مسار النيل عدة جزر، فقد كان النيل أحيانا تتدفق مياهه بسرعة وغزارة من الناحية الغربية من الجزر أى ناحية الجيزة وبولاق التكرور وامبابة، ويجف أو تقل مياهه ناحية الفسطاط والقاهرة فترتبك حياة الناس وتحدث أزمات كبيرة، لذلك فقد حرص السلاطين والأمراء على العمل على جعل الفرع الشرقى للنيل هو الفرع الأساس وتحويل المياه إليه بدلا من الفرع الغربى ناحية الجيزة، لذا فقد أنشئت العديد من الجسور التى كانت عبارة عن سدود تصل بين جزيرة الروضة والجيزة أو بين الروضة والجزر الأخرى لكى يتدفق الماء فى فرع سيالة الروضة حتى يحصل أهل الفسطاط والقاهرة على حاجاتهم من الماء بسهولة.

وأحيانا يحدث العكس بحيث تزداد قوة الماء ناحية الفسطاط والقاهرة فتغرق سواحلها والأحياء والخطط الواقعة على النيل مثل منشأة المهرانى وخط فم الخور وبولاق وشبرا فحينئذ يعمل السلاطين والأمراء الجسور بحيث ترد الماء عن بر القاهرة.

وهذه الجسور على نيل القاهرة تنشأ لمواجهة الطوارئ وحالات طغيان النهر وغرق القاهرة أو جفاف مياه النهر تجاه ساحلها ومن ثم فهى تختلف عن الجسور الدائمة الأخرى التى كانت تمتد على النيل وفروعه والخلجان والترع التى تخدم أغراض الزراعة [1].

---

(١) الجسور التى تخدم أغراض الزراعة على طول البلاد وعرضها كان كل منها عبارة عن سد ترابى مبنى على حافة النهر أو الترعة يحفظ الماء من أن يفيض على ضفتيه ويغرق البلاد المحيطة وتستمر هذه الجسور فى حجز مياه الفيضان كى يستفاد منها فى عمليات الرى، حتى ينصرف النيل ويزول الخوف من خطر الفيضان العالى. وكانت الجسور من الأمور الهامة التى تؤثر على الحياة الاقتصادية فى مصر منذ القدم.
وكانت فى مصر الإسلامية نوعان من الجسور الأولى هى الجسور السلطانية والثانية هى الجسور البلدية. أما الجسور السلطانية فهى تلك الجسور التى يعم نفعها كل الأرض الزراعية المصرية فى أنحاء البلاد، لذا كانت تشيد وتتم صيانتها من الديوان السلطانى ولها رسوم مقررة على البلاد المصرية فى شكل جراريف ومحاريث وأبقار مرتبة على غالب البلاد المصرية، وكانت الدولة مسئولة عن إقامة وصيانة هذه الجسور وكان لها ديوان مخصوص يقوم العاملون به بتحصيل ضرائب سنوية تخصص لعملها وصيانتها، وقد وصفت الجسور السلطانية بأنها بمثابة السور المحيط بالمدينة وعلى السلطان أن يهتم بهذا السور ويكفى الرعية أمر التفكير فيه. وكان لهذه الجسور السلطانية كاتب خاص مقرر فى ديوانه ما على كل بلد من الأبقار والجراريف.
أما الجسور البلدية فهى خاصة النفع بنواحى أو قرى معينة لذلك كانت مسئولية انشائها وصيانتها تقع على عاتق المقطعين الأرض فى هذه النواحى والقرى من الأمراء والأجناد وغيرهم من الفلاحين من الأموال الجارية فى اقطاعاتهم، وقد وصفت هذه الجسور بأنها تماثل الدور الواقعة داخل نطاق سور المدينة (الجسور السلطانية) وبطبيعة الحال فإن كل صاحب دار من هذه الدور مسئول عن صيانة داره وحمايتها. انظر: ابن مماتى، قوانين الدواوين، ص ٢٣٠ ـ ٢٢٣، القلقشندى، صبح الأعشى، جـ٣، ص ٤٤٨ ـ ٤٥٢، قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى، ص ٢٣ ـ ٢٤.

وكانت طريقة عمل الجسور والسدود بنيل القاهرة تتم عن طريقين، أما بتعلية أحد فرعى النيل وذلك بتغريق مراكب محملة بالأحجار وإهالة التراب والشقف والطمى والطين عليها لتعليتها حتى تصير سدا محكما، والطريقة الأخرى هى أن هذه الجسور تقام عن طريق عمل حائطين متوازيين من الأخشاب الصلبة. وافلاق النخيل وحشو ما بينهما بالتراب والشقف والأحجار وغيره [1].

ومن أمثلة الجسور التى عملت لطرد الماء عن بر القاهرة ما حدث سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون حيث زاد النيل عن ثمانية عشر ذراعا، وخرق الماء ناحية بستان الخشاب [2] ودخل الماء إلى جهة بولاق وفاض إلى باب اللوق حتى اتصل بباب البحر وبساتين الخور[3] فغرقت البساتين وهدمت عدة دور مطلة على النيل وكثير من دور الأحكار بطول شاطئ النيل، فقام الفخر ناظر الجيش بهذا الأمر وعرّف الناصر محمد أنه متى غفل دخل الماء إلى القاهرة وغرق أهلها ومساكنها، فركب السلطان إلى النيل ومعه الأمراء فرأى ما هاله وفكر فيما يدفع ضرر النيل عن القاهرة فاقتضى رأيه عمل جسر عند نزول الماء وانصرف، فقويت الزيادة وفاض الماء على منشأة المهرانى ومنشأة الكتبة وغرق بساتين بولاق وجزيرة الفيل حتى صار ما بين ذلك ملقه واحدة، وركب الناس المراكب للفرجة ومروا بها تحت الأشجار، فأمر السلطان والى القاهرة ووالى مصر أن يلزما الناس أن يرموا الأتربة بناحية بولاق وفى الأماكن التى علا فيها النيل [4].

وكثر الخوف من غرق القاهرة، وجمع أغلب الناس فى هذا العمل، وكانت محاصيل كثيرة قد فسدت وتلفت وكذلك مطامير الغلال والمخازن وارتفعت بعض الأسعار وتأخر الزرع عن أوانه لكثرة مكوث الماء، فكتب لولاه الأعمال بكسر الترع والجسور لكى ينصرف الماء عن أراضى الزرع إلى البحر المالح، وأخذ السلطان فى عمل الجسور، واستدعى المهندسين وأمرهم بإقامة جسر يصد الماء عن القاهرة خشية أن يكون نيل مثل هذا، وكتب باحضار خولة البلاد، فلما تكاملوا أمرهم فساروا إلى النيل وكشفوا الساحل كله فوجدوا ناحية جزيرة الفيل مما يلى منية السيرج قد صارت أرضها وطيئة ومن هناك يخاف على القاهرة من الماء، فلما عرّفوا السلطان ذلك أمر بإلزام كل من له دار على النيل بمصر أو منشأة المهرانى أو منشأة الكتبة أن يعمر قدامها زربية [5] ففعلوا ذلك. وأمر السلطان الأمراء باستدعاء

(١) المقريزى، الخطط جـ٢، ص ١٦٥، السلوك، جـ٣، ص ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

(٢) بستان الخشاب يشمل منطقة أبو الريش والقصر العينى، وعنه بالتفصيل انظر ما يلى ص ٥١.

(٣) عن خليج الخور وبستان الخور انظر ما يلى ص ٣١٠.

(٤) المقريزى، الخطط جـ٢، ص ١٦٦، السلوك، جـ٢، ص ٢٥١.

(٥) الزربية هى ما يبنيه الناس من أصحاب البيوت المطلة على النيل من حوائط لحماية بيوتهم من فعل الماء، ومن سلالم لتسهل الوصول من تلك البيوت إلى النهر كما هو متبع فى البيوت الباقية على شواطئ =

فلاحيهم من النواحى فحضروا بالأبقار والجراريف لعمل الجسر من بولاق إلى منية السيرج، فقاس المهندسون الأرض ووزعت بالأقصاب على الأمراء فنصب كل أمير خيمة وخرج برجاله للعمل ونصبت لهم الأسواق حتى كمل الجسر فى عشرين يوما، وكان ارتفاع الجسر من الأرض أربع قصبات [١] فى عرض ثمان قصبات، فانتفع الناس به انتفاعا كبيرا، وقد أراد السلطان بعمله لهذا الجسر أن لا تغرق البلاد مثلما غرقت سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧ [٢]، ومكان الجسر الآن شارع الترعة البولاقية من بولاق إلى منية السيرج.

وفى سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م قوى النيل على ناحية بولاق وهدم جامع الخطيرى، ثم جدد، وتيار البحر يزداد قوة على بر القاهرة فأمر السلطان الملك الناصر محمد سكان دور شاطئ النيل بعمر زرابى لجميع تلك الدور فلم يفد ذلك شيئا [٣].

فاهتم الملك الناصر بهذا الموضوع اهتماما كبيرا حتى أنه طلب مهندسين من الشام بالإضافة إلى مهندسى مصر، فركب بعساكره وصحبته المهندسين وخولة الجسور وتوجه إلى شاطئ النيل ونزل فى المركب السلطانى المسمى الحراقة وكشف أمر شطوط النيل فاقتضى الرأى أن يعمل جسر بوسط النيل وأن يحفر بالجزيرة الوسطى خليجا منخفضا يمر فيه الماء، وعند زيادة النيل يقف السد حائلا للماء فيرتد إلى الناحية الأخرى للنيل بحيث يزيد على بر الجيزة وبولاق التكرور وامبابة [٤].

وهذا هو الذى سماه المقريزى « الجسر بوسط النيل » [٥] ومما ذكره المقريزى وابن تغرى

= النيل بدمياط وسمنود ورشيد، كما كانت الزريبة أيضا مكان لتربية الخيول أو الماشية، وكانت تحاط بزريبى (حزم) من البوص أو الغاب ثم يشد بالحبال ثم يطين ليزداد تماسكا، وقد كانت هذه الزرابى تبنى على ضفاف النيل والخلجان والترع حتى تحمى الدور من ارتفاع الماء، وقد كانت هذه الزرابى منتشرة فى مصر انتشاراً كبيرا فى العصر المملوكى، ومن معانى الزريبة أيضا هو الكورنيش. انظر: السلوك، جـ٢، ص ٢٥١، الحاشية.

(١) القصبة التى كانت تستعمل فى القياس فى العصر المملوكى هى القصبة الحاكمية وكان طولها يوازى الآن ٣٫٨٥ مترا. انظر: عبد اللطيف إبراهيم، وثيقة قراقجا الحسنى مجلة كلية الآداب، المجلد ١٨، الجزء الثانى، ديسمبر ١٩٥٦، ص ٢٣٦.

(٢) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٦٦ ـ ١٦٧، السلوك، جـ٢، ص ٢٥١.

(٣) الشجاعى (شمس الدين الشجاعى، ت ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م)، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده، (نشر فرانز شتانير، فيسبادن، ١٩٧٨)، ص ٣١، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٦٧، السلوك، جـ٢، ص ٤٤٩، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص١٢٥.

(٤) المقريزى، الخطط، ص ١٦٧، السلوك، جـ٢، ص ٤٥٠، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٥) الخطط، جـ٢، ص ١٦٧.

بـردى [1] فى هذا الخصوص أرى أن هـذا الجسر كان يصل ما بين حكر ابن الأثر جنوب بولاق وبين رأس الجزيرة الوسطى (بالقرب من موقع فندق شيراتون الجزيرة حاليا)، وأن الخليج الذى حفر كان بالجزيرة الوسطى [2]. (شكل ٦).

وابتدأ العمل فى ذلك المشروع يوم الأحد عاشر من ذى القعدة سنة ٧٣٨هـ، وشأن تلك الأعمال التى تحتاج إلى أعداد كبيرة من الناس وسخرة فى العمل فقد تم استقدام الكثير من الناس من جميع أنحاء مصر، واستقدم الحجارون ورؤساء البحر وصناع السفن، وندب السلطان لهذا العمل الأمير اقبغا عبد الواحد والأمير برصبغا الحاجب، وجمع واليا مصر والقاهرة والناس وسخروهم فى العمل حتى هلك عدد كبير منهم [3]، وكان السلطان ينزل إلى موقع العمل ويحث الأمير اقبغا على سرعة انجازه حتى تم العمل فى النصف الأول من ذى الحجة أى بعد شهرين فقط، وكانت عدة المراكب التى غرقت فيه وهى مشحونة بالحجارة اثنى عشر مركبا سعة كل واحد منها ألف أردب غلة، وكانت عدة المراكب التى اشحنت بالحجارة المقطوعة ورميت فى البحر حتى صار جسرا يمشى عليه ثلاث وعشرين ألف مركب، وحفر الخليج بالجزيرة فلما زاد النيل جرى الماء فيها، وتراجع الماء عن بر القاهرة وقوى على بر الجيزة وبولاق التكرور وامبابة، فسر السلطان والناس جميعا لما كان يعتريهم من خوف على غرق القاهرة فكان هذا الجسر سبب انطراد الماء عنها [4].

نتج عن تلك الأعمال التى قام بها الناصر محمد تأثير جانبى كبير إذ أن النيل تحول إلى الغرب وبعد عن بر القاهرة وانكشفت أراضى كثيرة من قبالة منشأة المهرانى إلى جزيرة الفيل

---

(١) نفسه، السلوك، جـ٢، ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٩، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٢) نظرا لعدم الدقة والتحديد من المؤرخين فى الكلام عن هذا المشروع اعتقد المرحوم محمد رمزى أن الجسر كان يصل ما بين بولاق إلى رأس جزيرة الوراق، وأن الخليج الذى حفر كان بجزيرة الوراق وأنه هو الموجود حاليا بين الجزيرة والشاطىء الغربى للنيل، انظر تعليقه على النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ١٢٤.
إلا أن هذا الاعتقاد غير عملى لأن المسافة كبيرة بين بولاق ورأس جزيرة الوراق كى يتم عمل الجسر بها، كذلك فإنه لا يخدم المناطق والخطط المعمورة المراد تجنيبها زيادة النيل وهى تمتد من منشية المهرانى (القصر العينى حاليا) إلى بولاق إلى منية السيرج أى أنها توازى جزيرتى الروضة والوسطى بينما المنطقة التى توازى جزيرة الوراق تقع فى شبرا الخيمة أى بعيدة عن الغرض المراد، كما أن فراغ النيل غربى جزيرة الوراق هو الفرع الرئيسى للنيل ويبلغ اتساعه ضعف اتساع الفرع الشرقى.
وباستعراض أقوال المؤرخين تبين لى أن الجسر كان يصل بين حكر ابن الأثير بجنوب بولاق (أمام فندق هيلتون رمسيس حاليا) إلى رأس الجزيرة الوسطى (جزيرة الزمالك حاليا) بالقرب من موقع فندق شيراتون الجزيرة حاليا، وأن الخليج الذى حفر كان بالجزيرة الوسطى.

(٣) المقريزى، السلوك، جـ٢، ص ٤٥٠، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٩، ص ١٢٧.

(٤) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص ٣١ ـ ٣٢، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٩، ص ١٢٨. المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٦٧، السلوك، جـ٢، ص ٤٤٩ ـ ٤٥١.

وإلى منية السيرج، وصار الناس يجدون مشقة لبعد الماء عن القاهرة، وغلت روايا الماء، وكذلك ضعف تيار الماء بسيالة الروضة وصار الماء يخاض بالأرجل من بر مصر إلى المقياس، فكثرت شكاوى الناس بسبب ذلك، وجرت عدة محاولات أثناء سلطنة الكامل شعبان (٧٤٦ ـ ٧٤٧هـ/ ١٣٤٥ ـ ١٣٤٦م)، وسلطنة أخية حاجى (٧٤٧ ـ ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٦ ـ ١٣٤٨م) لعمل سدود بين الجيزة والمقياس حتى يتحول الماء إلى ناحية سيالة الروضة والقاهرة، ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل [١].

فلما كان فى سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م فى سلطنة الملك الناصر حسن ازداد احتراق النيل عما ذى قبل، وازدادت الرمال على الجانب الشرقى للنيل بطول ساحل مصر والقاهرة حتى بولاق، فاقتضى الرأى عمل جسرين، الأول بين المقياس والجيزة والآخر بين جزيرة الروضة والجزيرة الوسطى ليعود جريان النيل ناحية الفسطاط والقاهرة، وكان المشرف على ذلك الوزير منجك، فجهز ما يحتاج إليه فى عمل الجسرين، وكانت طريقة عمل الجسرين أن تقام الأخشاب بجانبى كل جسر منهما وردم التراب والحجارة فى وسطه مع الحلفاء وتم قطع الطين من بر الروض ورميه بوسط الجسر وغرّقت عشرة مراكب مملوءة حجارة فى وسط جسر المقياس وردم عليها التراب، واستمر العمل أربعة أشهر من مستهل المحرم إلى آخر ربيع الآخر ٧٤٩هـ [٢].

وكان منجك قد حفر أيضا خليجًا تحت الدور من موردة الحلفا إلى بولاق (شكل ٣٧) فلما زاد النيل جرى الماء ودخلته المراكب الصغار ففرح الناس به وسروا سروراً زائداً ونسوا ما نزل بهم من الغرامة والمشقة، وكانت قد جبيت أموال كثيرة بسبب ذلك المشروع، ولم يتم من العمل سوى ثلثيه وقويت الزيادة فبطل العمل ولم تزل تقوى حتى علا الماء على جسر الروضة وكاد يقطعه فركب منجك ومعه والى الجيزة وخلائق كثيرة من العامة والأمراء وردمه بالتراب فاندفع الماء إلى جهة الميدان السلطانى وزريبة قوصون [٣].

وكان طول جسر الجزيرة الوسطى مائتى وتسعين قصبة فى عرض ثمانى قصبات وارتفاع أربع قصبات وطول جسر المقياس (الذى بين المقياس والجيزة) مائتى وثلاثين قصبة، وعدة مارمى فى هذا العمل من المراكب المشحونة بالحجارة اثنى عشر ألف مركب سوى التراب والطين وغرم عليه مالا يمكن حصره، ويقال أنه جبى من الناس بسببه زيادة على ثلاثمائة ألف دينار، ويذكر «المقريزى» أنه بقى من جسر منجك هذا بقية كانت موجودة على أيامه فى طرف الجزيرة الوسطى [٤].

---

(١) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٦٧ ـ ١٦٨، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٠، ص ١٣٠ ـ ١٣١.

(٢) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٦٩. (٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) عن ذلك بالتفصيل انظر: المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٦٨ ـ ١٦٩، السلوك، جـ٢، ص ٧٦١ ـ ٧٦٦، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق١، ص ٥٢١ ـ ٥٢٣.

وفى عام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م كان النيل منطردًا عن بر القاهرة فأراد الأمير جهاركس الخليلى أن يعود الماء إلى بر القاهرة طول العام لذا بدأ فى شهر ربيع الأول من نفس السنة بعمل جسر بين الطرف الشمالى لجزيرة الروضة والطرف الجنوبى لجزيرة أروى (الجزيرة الوسطى) فأقام الخوازيق من خشب السنط وسمر فيها أفلاق النخيل الممتدة كالستارة وألقى بين الخوازيق ترابا كثيرا، بالإضافة لذلك حفر فى وسط النيل خليجًا من الجسر إلى زريبة قوصون (شكل ٣٧)، وغرم جهاركس أموالا كثيرة فى ذلك من ماله الخاص، ومع ذلك لم يأت ذلك الجسر بما كان مرجوًا منه، بل حدث عكس ذلك تمامًا، فقد ازداد الماء انطرادًا عن بر القاهرة ومصر حتى لقد انكشف بعد عمل هذا الجسر شىء كثير من الأراضى التى كانت غامرة بماء النيل، وبعد النيل عن القاهرة بعدا لم يعهد فى الإسلام مثله قط [١].

أما فى العصر العثمانى (٩٢٣ ـ ١٢١٣هـ/ ١٥١٧ ـ ١٧٩٨م) فلم يرد لنا ذكر لأعمال جسور وسدود لضبط النيل تجاه القاهرة، وانما اهملت تلك الأعمال اهمالا كبيرا فقد قال المنوفى (ت٩٣١هـ/ ١٥٢٤م) عن سوء الحال الذى وصل إليه أمر الجسور فى آخر العصر المملوكى وأول العصر العثمانى . . . تهدم فى زماننا الجسور وتحكم الفساد وخربت البلاد ووسد الأمر إلى غير أهله ووضع الشىء فى غير محله ولا جرم أن حل بالناس ما حل وانفرط نظام المملكة وانحل [٢].

ثالثا: الخطط التى عمرت فى العصرين المملوكى والعثمانى على أرض طرح النيل بالقاهرة

نتيجة لظاهرة طرح النيل تكونت أراضى جديدة على طول ساحل النيل الشرقى بمواجهة الفسطاط والقاهرة، ومن هذه الأراضى التى ظهرت بفعل طرح النيل الأرض التى كونت منطقة مصر القديمة التى تكونت تماما خلال الخمسة طروح الأولى النيل فى المسافة المحصورة الآن فيما بين أثر النبى جنوبا حتى فم الخليج شمالا.

وفى العصر المملوكى طرح النيل أراضى جديدة على طول ساحل النيل وسرعان ما امتدت إليها يد التعمير إلى جانب زراعتها وغرس البساتين المثمرة بها، وكانت هذه المناطق والخطط

---

(١) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٦٩ ـ ١٧٠، السلوك، جـ٢، ص ٤٦٩ ـ ٤٧٠، ابن حجر، انباء الغمر، جـ٣، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١١، ص ٢١٣ ـ ٢١٤، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق محمد أمين، (ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م) جـ٤، ص ٢٠٦. السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٣٠٦، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ١، ق٢، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٢) الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد، (مخطوط بدار الكتب المصرية)، ص ٤٨ ـ ٤٩.

الجديدة من متنزهات القاهرة الحسنة لوقوعها على ساحل النيل وغرسها بالبساتين والحدائق والحقول.

وهذه الخطط والمناطق والسواحل الجديدة هى بالترتيب من الجنوب إلى الشمال:

(١) خط موردة الحلفا
(٢) منشأة المهرانى
(٣) خط منشأة الكتبة
(٤) خط موردة البلاط والميدان السلطانى
(٥) خط زريبة قوصون
(٦) خط فم الخور وحكر ابن الأثير
(٧) بولاق
(٨) جزيرة الفيل (شكل ٧)

(١) خط موردة الحلفا [١]:

انحسر النيل عدة مرات أمام مدينة الفسطاط حتى استقرت الأرض تماما بعد الطرح الخامس له. وقد كان ساحل النيل بعد انحساره الأول يعرف باسم موردة سوق السمك أمام سيالة الروضة [٢] ثم عرف بعد ذلك باسم موردة الحلفا ربما لنمو نبات الحلفا به.

وكان الاهتمام بتلك المنطقة يرجع إلى آخر الدولة الأيوبية إذ كان الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧هـ-٦٤٧هـ/ ١٢٣٩-١٢٤٩م) يحفر فى كل عام سيالة الروضة ويرمى ناتج الحفر على الأرض أمامها فى تلك المنطقة حتى تكونت الأرض وتماسكت واشتدت فبدأ العمران يزحف إليها فبنى الامراء بها الدور والمناظر والقصور وأنشاؤا حولها البساتين [٣].

وفى زمن الدولة المملوكية ازداد العمران بها وخصوصا أيام الناصر محمد بن قلاوون وصار ساحل النيل أمام موردة الحلفا ميناء تقف بها المراكب المحملة بالغلال ويملأ الناس منها الروايا [٤].

وقد عمر الملك الناصر محمد قلاوون جامعا كبيرا حسنا بموردة الحلفا وصفه المؤرخون بأنه من أحسن متنزهات مصر، وقد تم بناؤه فى سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م وكان يسمى الجامع الناصرى الجديد وربما جاء هذا الاسم من التعمير الجديد لتلك الخطة فى ذلك الوقت، وكان

---

(١) من معانى الموردة فى اللغة «مأتاه الماء»، «الطريق إلى الماء»، وكانت تنتشر على نهر النيل والخلجان كثير من هذه الموردات التى يستقى الناس من عندها. انظر مادة «موردة» فى القاموس المحيط للفيروزابادى، وفى المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية.

(٢) ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ٧٧، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٤٥، جـ٢، ص ٣٠٤.

(٣) ابن دقماق، نفس المصدر والصفحة. المقريزى، نفس المصدر والصفحات.

(٤) المقريزى، نفس المصر، جـ١، ص ٣٤٥.

هذا الجامع مبنى على نسق المساجد الجامعة فكان يتكون من صحن أوسط مكشوف تحيط به الأروقة، وقد ألحق بهذا الجامع جماعة كبيرة من المتصوفة، وقد عمر حول الجامع الدور والبساتين، وظل الجامع عامرا فترة من الزمن حتى خرب ما حوله، وكان فيه بقية حتى أيام المقريزى (ت ٨٤٥هـ) [١] وقد اندثر هذا الجامع الآن وكان موقعه المنطقة التى يخترقها اليوم شارع السكر والليمون جنوبى فم الخليج بمصر القديمة.

وتشغل موردة الحلفا الآن المنطقة التى تحد من الجنوب بمنطقة دير النحاس بجوار نفق الملك الصالح وتمتد شمالا حتى سور مجرى العيون بفم الخليج (شكل ٨).

وكان يتعاقب على موردة الحلفا فى العصرين المملوكى والعثمانى فترات تتراوح ما بين العمران أحيانا والخراب أحيانا أخرى، الذى كان يأتيها نتيجة طغيان فيضان النيل على مبانيها فيدمرها ويغرق بساتينها وزروعها، وبالنظر إلى خريطة الحملة الفرنسية نجد صفًا من المبانى المتصلة على النيل بموردة الحلفا وخلفها بساتين وحقول.

(٢) منشأة المهرانى:

تلى منشأة المهرانى [٢] موردة الحلفا وكانت من أهم متنزهات مصر فى العصرين المملوكى والعثمانى وذلك لوقوع الاحتفال بمهرجان وفاء النيل وكسر سد الخليج بها.

ظهرت أرض منشأة (منشية) المهرانى أول مرة نتيجة انحسار النيل بعد سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م، وقد عمرت فى زمن الدولة الأيوبية حيث أقام القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى [٣] جامعا وبستانا عظيما بها، وعمرت الدور حينئذ بجوار الجامع فقيل لها منشأة

---

(١) عن هذا الجامع بالتفصيل، انظر: بيبرس المنصورى (ركن الدين بيبرس عبدالله المنصورى الدوادار ت٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م)، التحفة الملوكية فى الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان (نشر الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧) ص ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٤، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٠٤، السلوك، جـ٢، ص ١٠٢، ١١٤، ١١٥، ٦٥، ابن دقماق، الانتصار جـ٤، ص ٧٦ ـ ٧٧، ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٩، ص ٣٣.

(٢) المنشأة تعبير يطلق على حى جديد بجانب مدينة بتخطيط جديد، ويسميها الناس المنشية، واسم المنشية منتشر فى كثير من مدن وقرى مصر. انظر: محمد كمال السيد، اسماء ومسميات من مصر القاهرة، (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م)، ص ٢١١.

(٣) هو القاضى الكاتب الأديب عبد الرحيم بن على البيسانى، من أسرة أدبية كبيرة، وقد تولى فى آخر الدولة الفاطمية وأول الدولة الأيوبية عدة وظائف هامة وكان أهمها ديوان الانشاء وقد توفى سنة ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م. انظر بالتفصيل: المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.
ومن الجدير بالذكر أن مصلحة التنظيم أطلقت على شارعين متوازيين بالمنيرة متفرعين من شارع القصر العينى أمام دار الحكمة اسمى شارع بستان الفاضل نسبة لبستانه الذى كان بتلك المنطقة والشارع الثانى=

الفاضل، وكان بستان الفاضل يغذى القاهرة بالعنب والثمار، وظلت المنشأة عامرة حتى طغى النيل عليها فخبت سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م [١].

وقد عين «المقريزى» موقع منشأة المهرانى وتحدث عن تعميرها فى العصر المملوكى فقال: «أن موضعها فيما بين النيل والخليج وفيها من الحمراء القصوى فوهة الخليج، انحسر عنها ماء النيل قديما وعرف موضعها بالكوم الأحمر من أجل انه كان يعمل فيها أقمنة الطوب، فلما سأل الصاحب بهاء الدين بن حنّا الملك الظاهر بيبرس فى عمارة جامع بهذا المكان ليقوم مكان الجامع الذى كان بمنشأة الفاضل أجابه إلى ذلك وانشأ الجامع بخط الكوم الأحمر، وأنشأ هناك الأمير سيف الدين بلبان المهرانى دارا وسكنها وبنى مسجدا فعرفت هذه الخطة به وقيل لها منشأة المهرانى، فإن المهرانى المذكور أول من ابتنى فيها بعد بناء الجامع، وتتابع الناس فى البناء بمنشأة المهرانى وأكثروا من العمارة حتى يقال أنه كان بها فوق الأربعين من أمراء الدولة سوى من كان هناك من الوزراء وأماثل الكتاب وأعيان القضاة ووجوه الناس، ولم تزل على ذلك حتى انحسر الماء من الجهة الشرقية فخربت وبها الآن بقية يسيرة من الدور [٢].

وذكر «المقريزى» المنشية وعين حدودها وما يجاورها فى مواضع أخرى من الخطط [٣].

وذكر «ابن دقماق» منشية المهرانى ففى كلامه عن الروضة قال « أن جامع الفخر (جامع قايتباى حاليا) بآخر الروضة عند المنيل تجاه طرف منشية المهرانى» [٤] وكذلك ذكر «ابن دقماق» أسماء العديد من المساجد والمدارس التى بنيت فى منشية المهرانى [٥]، وذكر أيضا أن الملك الظاهر بيبرس أمر بعمل جامع بها سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م [٦] ولكن المؤرخ «ابن تغرى بردى» ذكر أنه قد أقيمت الخطبة بجامع الظاهر هذا يوم الجمعة ثامن عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م [٧].

= اسم شارع عبد الرحيم البيسانى أى اسم القاضى الفاضل نفسه.
بالإضافة لذلك أطلقت مصلحة التنظيم على شارع ثالث اسم شارع منشأة الفاضل يصل بين شارعى يوسف الجندى وقدادار شرقى ميدان التحرير، وهذا الموقع بعيد عن منشأة الفاضل التى كانت بأول القصر العينى.

(١) ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١١٩، المقريزى، الخطط، جـ١، ص ٣٤٥-٣٤٦.
(٢) الخطط، جـ١، ص ٣٤٦. (٣) جـ١، ص ٣٤٣، جـ٢، ص ١٠٩، ١١٤، ١٤٦.
(٤) الانتصار، جـ٤، ص ١١٦. (٥) نفسه، ص ١١٩-١٢٠. (٦) نفسه، ص ١١٩.
(٧) النجوم الظاهرة، جـ٧، ص ١٥٠، يحدث دائما أن يتم انشاء إيوان القبلة فى أى مسجد أو جامع أولا فيفتتح ويصلى به الجمعة ثم تستكمل باقى الأعمال بعد ذلك، وعلى ذلك نقول أن افتتاح مسجد الظاهر هذا تم فى ربيع الآخر سنة ٦٦٩هـ حسبما ذكر ابن تغرى بردى، وإن استكمال المسجد كله تم سنة ٦٧١هـ حسبما ذكر ابن دقماق.
هذا الجامع كان واقعا على الأرض الواقعة على شارع القصر العينى تجاه معهد ومستشفى الكلب من الجهة الشرقية قرب فم الخليج، وقد اندثر حاليا، انظر: محمد رمزى، تعليقه على النجوم، جـ٧، ص ١٥٠.

وقال «القلقشندى» عن منشأة المهرانى أيضا «ويبدو فى آخر الفسطاط وهذه الجزيرة (يقصد الروضة) على فوهة خليج القاهرة حيث السد الذى يفتح عند وفاء النيل مكان كالجزيرة يعرف بمنشأة المهرانى، وكان كوما يحرق فيه الآجر يعرف بالكوم الأحمر عده القضاعى فى جملة كيمان الفسطاط، وقال صاحب ايقاظ المتغفل وأول من ابتدأ العمارة بلبان المهرانى فى الدولة الظاهرية بيبرس فنسبت المنشأة هذه إليه »[١].

ومن خلال ما ذكر نقول أن منشأة المهرانى تشغل اليوم المنطقة التى تحد اليوم من الغرب بسيالة الروضة ومن الجنوب بميدان ومنتزه فم الخليج اللذين حلا محل فم الخليج المصرى، والحد الشرقى يتمثل فى خط يصل بين شارع العيون جنوبا حتى أول شارع المنيرة شمالا، والحد الجنوبى يتمثل فى شارع بستان الفاضل وما فى امتداده أى شارع الدكتور حندوسة (شارع مستشفى اللادى كرومر سابقا) حتى كوبرى القصر العينى[٢] (كوبرى محمد على سابقا) (شكل ٩).

وكانت منشية المهرانى عامرة عمارة كبيرة فى العصر المملوكى، وكانت تحوى مساجد ومدارس كثيرة[٣]، وحمامات عامرة مثل حمام ابن أبى الحوافر المتوفى ٦٥٧هـ[٤]، وخانقاوات مثل خانقاة ارسلان الدوادار المتوفى ٧١٧هـ/ ١٣١٧م[٥]، وكان للسلطان الملك المؤيد شيخ معصرة فى منشأة المهرانى لاستخلاص السكر والعسل[٦].

وكانت منشية المهرانى تتعرض أحيانا للخراب فى المحن والأزمات التى حلت بمصر نتيجة نقص النيل وطغيان الرمال على السواحل بالإضافة للفتن والقلاقل التى قامت بها طوائف المماليك، ومن أكبر هذه الأزمات الأزمة التى حدثت سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م وما تلاها، ولكن

---

(١) القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على بن أحمد، ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، صبح الاعشى فى صناعة الانشا، (ط دار الكتب المصرية، ١٩١٤م) جـ٣، ص ٣٤٠.

(٢) أطلقت مصلحة التنظيم اسم منشأة المهرانى على شارع متعامد على شارع قدادار شرقى ميدان التحرير وهذا الموقع بعيد عن الموقع الأصلى لمنشأة المهرانى. ولكننا نجد شارع باسم سكة المنشأة متفرع من شارع القصر العينى يتفق وموقع منشأة المهرانى. انظر أيضا: محمد رمزى، تعليقه على النجوم، جـ٩، ص ١٨٤.

(٣) ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ٩٠، ١١٩، ١٢٠.

(٤) نفسه ص ١٠٤، ١٠٥، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٨٥، ابن الصيرفى (الخطيب الجوهرى على بن داود الصيرفى ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م)، نزهة النفوس والأبدان، تحقيق حسن حبشى، جـ٢، (ط دار الكتب المصرية، ١٩٧١م)، ص ٤٧٩.

(٥) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٤٢٣، ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ٢، ٣٠١.

(٦) وثيقة المؤيد شيخ رقم ٩٣٨ المحفوظة بالأوقاف، نشر فهمى عبد العليم، العمارة الإسلامية بمصر فى عصر السلطان المؤيد شيخ، دكتوراة «مخطوطة»، (كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٨) ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ سطور ٢٣٦ ـ ٢٤٠.

سرعان ما عاد العمران إليها مرة أخرى وخاصة لما قام الملك المؤيد شيخ بحفر النيل، ومن أجل حماية المنشية عمل المؤيد جسراً بطولها عند الحفر[١].

ومن الأعمال العظيمة بالمنشأة ما قام به الأمير چانى بك نائب جده الدوادار[٢]، فقد أنشأ بستانا عظيما كان محله كوم وبركة، وقد انتهى منه بعد شهرين فقط وكان ذلك فى شهر ربيع الأول ٨٦٣هـ، وقد كان كوما خبيثا تتم به بعض الأمراض الاجتماعية التى كانت سائدة فى ذلك الوقت من استعماله لأمور الفساد وشرب المسكرات فصار بستانا نزها[٣]، وفى سنة ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢ أكمل زراعة البستان وجعل به بحيرة، وكان هذا البستان يقع شمال منشأة المهرانى وكانت مساحته ١٥٠ فدانا[٤]، وكان له باب قريب من خط قناطر السباع (السيدة زينب حاليا) وباب آخر على النيل تجاه الروضة، وعمل چانى بك بطرف بستانه على النيل قبتين واحدة كبيرة والأخرى صغيرة، وعمل رصيفا على النيل، وانزل بالقبتين جماعة من صوفية الأعاجم وأجرى عليهم الرواتب الهائلة وأوقف عليهم أوقافا كثيرة، وقد أقام چانى بك احتفالات كبيرة ببستانه وقبتيه[٥]، وقد استخدمت تلك القبتان كمتنزه عظيم بقية العصر المملوكى وطوال العصر العثمانى[٦].

وعمرت المنشأة عمارة عظيمة وهوت إليها القلوب والأفئدة للتنزه والاستمتاع بأوقات حسنة خصوصا بعد أن أنشأ بها الأمير شهاب الدين أحمد بن العينى[٧] قصرا عظيما يطل

---

(١) السخاوى (محمد بن عبد الرحمن، ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (نشر مكتبة القدسى بمصر، ١٩٥٣)، جـ٣، ص ٣١.

(٢) هذا الأمير من كبار أمراء دولة المماليك الجراكسة، وقد تولى وظائف هامة فى الدولة، وقد قتل سنة ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢. انظر ترجمته فى: ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٦، ص ٢٧٧، ٣٢٠ـ٣٢٣، المنهل الصافى، جـ٤، ص ٢٤٣ـ٢٤٨، السخاوى، الضوء اللامع، جـ٤، ص ٥٧.

(٣) ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، (نشر وليم يوبر، ط كاليفورنيا، ١٩٣٠، جـ٢)، ص ٣٢١.

(٤) يساوى الفدان الآن ٤٢٠٠ متر مربع.

(٥) ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٦، ص ٢٧٧، ٣٢٢، ٣٢٣، حوادث الدهور، جـ٣، ص ٥٦٦ـ٥٦٩، ص ٧٦٦ـ٧٦٨، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٠٦، ٤٤٩.

(٦) Abouseif, (D), The Coppa, An Aristocratic Type of Zawiya An Isl XIX IFAO (1983) p. 2 - 3.

(٧) هو أحمد بن عبد الرحيم بن قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى، تولى عدة وظائف هامة فى الدولة، ورقى لمنصب أمير مائة مقدم ألف، وكان له شأن كبير أيام السلطان خشقدم ولكنه تعرض لمحن وشدائد أيام قايتباى وقانصوه أبو سعيد، وقد توفى بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م. انظر ترجمة كاملة فى: ابن تغرى بردى، النجوم، جـ١٦، ص ٢٧١، ٢٨٣، ٢٩٥، ٣٧٩، السخاوى، الضوء اللامع جـ١، ص ٣٤٥ـ٣٤٦، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٤، ص ٥٧ـ٥٨.

على النيل بجوار بستان چانى بك بجوار القبتين فى سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م [١]، وكان هذا القصر والبساتين حوله وقبتا چانى بك متنزهات عظيمة للسلاطين والولاة والأمراء والناس جميعا فى العصرين المملوكى والعثمانى [٢].

وقد غلب اسم قصر العينى على المنطقة منذ ذلك الوقت وحتى الآن، وكان السلطان قايتباى (٨٧٢ ـ ٩٠١هـ/ ١٤٦٨ ـ ١٤٩٦م) كثير التنزه بالمنطقة وقد أمر باصلاح جامع يسمى جامع الرحمة ببستان نائب جدة [٣].

وفى العصر العثمانى كان القصر العينى محطة استقبال لولاة مصر العثمانية، وعمرت قبتا چانى بك طول العصر، واستخدمت ككية عظيمة لطائفة المتصوفة البكتاشية [٤]، وكانت منطقة القصر العينى من المناطق المفضلة لسكنى العديد من الأمراء ذوى النفوذ فى القرن ١١هـ/ ١٧م وكانوا يدعون الباشا إلى هناك لحضور حفلات باذخة، وقرب نهاية القرن كان يأتى للاقامة هناك الباشوات المعزلون أو الحديثو التعيين بدلا من الاقامة داخل القاهرة[٥].

وقد أجريت على القصر العينى عدة عمارات ففى سنة ١٠٨٣هـ/ ١٦٧٢م أنشأ والى مصر إبراهيم باشا كتخدا الوزير [٦] قصرا فى الركن الجنوبى، كما ضم إليه الوالى عبد الرحمن باشا[٧] قصرا آخر فى سنة ١٠٨٨ هـ/ ١٦٧٧م [٨].

---

(١) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، جـ٣، ص ٥٤١، ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٢، ص ٤٤٩.

(٢) انظر ما يلى ص ٤٥٩. (٣) السخاوى، الضوء اللامع، جـ٦، ص ٢٠٨.

(٤) التكية مكان لخلوة الصوفية الاعجام ويسمون الدراويش المتفرغين للعبادة، وكانت تجرى عليهم الأرزاق بما يلزمهم من مأكل ومشرب وملبس من أوقاف خاصة، وقد حلت التكايا فى العصر العثمانى محل الخانقاوات المملوكية، وفقدت التكايا فى العصر العثمانى الغرض الدراسى الذى كانت تقوم به الخانقاوات المملوكية، وتكاد تكون اختصت بالعاطلين فقط. انظر: سعاد ماهر، مساجد مصر وأوليائها الصالحون، (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة، ١٩٨٣، جـ٥) ص ٤٩، ٩٦، دولت عبدالله، معاهد تزكية النفوس، (القاهرة، سنة ١٩٨٠م).

(٥) اندريه ريمون، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٦) تولى إبراهيم باشا فى الفترة من محرم ١٠٨١هـ حتى آخر جمادى الأولى ١٠٨٣هـ (يونيه ١٦٧٠ ـ سبتمبر ١٦٧٢م) انظر بالتفصيل: أحمد شلبى (أحمد شلبى بن عبد الغنى الحفنى المصرى، ت١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م)، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العينى، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، (نشر مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٧٨م)، ص ١٧٠ ـ ١٧٢. ابن الوكيل (يوسف الملوانى الشهير بابن الوكيل)، تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، (مخطوط بمكتبة رفاعة بسوهاج، تحت رقم ٢٨ تاريخ) ص ٢١١ ـ ٢١٤.

(٧) تولى عبد الرحمن باشا من ربيع الثانى ١٠٨٧ حتى عزل فى غاية شعبان سنة ١٠٩١هـ (١٦٧٦ ـ ١٦٨٠م). انظر بالتفصيل: أحمد شلبى، أوضح الاشارات، ص ١٧٥ ـ ١٧٧، ابن الوكيل، تحفة الاحباب، ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٨) حسن الباشا، القصر العينى تاريخ وأثر، (مذكرة)، ص ٥.

كما كانت المنطقة تحتوى فى النصف الثانى فى القرن ١١هـ/ ١٧ على ثلاثة وأربعين مقعدا أو منظرة تطل على النيل كما ذكر الرحالة التركى أوليا شلبى [١].

وقد ذكر على مبارك فى خططه أن تكية القصر العينى فيها قبتان مفروشتان بالرخام والترابيع (وهما قبتا چانى بك)، وقد ألحق حسين قبودان بإحدى القبتين سبيلا سنة ١١٩٧هـ/ ١٧٨٣م وكان للتكية فدانان فيهما النخيل والأشجار، وفى سنة ١٢٠١هـ/ ١٧٨٧م عمر التكية حسن باشا فبنى أسوارها وأسوار الغيطان الموقوفة عليها المحيطه بها وأنشأ بها صهريجا وأنشأ بجانبها مصلى [٢].

وفى أثناء الحملة الفرنسية على مصر (١٢١٣ ـ ١٢١٦هـ/ ١٧٩٨ ـ ١٨٠١م) حولوا القصر إلى مستشفى وزودوه بالحصون، ثم أقام محمد على باشا قشلاق للجند فى سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٢م ومبنيين بعد ذلك سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م وجعل كل ذلك مستشفى.

وبالنظر إلى خريطة الحملة الفرنسية للموقع نجد أن منشية المهرانى عبارة عن أراضى زراعية وبساتين يتوسطها القصر العينى وبيوت قليلة حوله مثل بيت مصطفى بك شمالا وبيت محمد كاشف الأرناووط جنوبًا.

(٣) خط منشأة الكتبة:

عمر هذا الخط أيام الناصر محمد بن قلاوون، فقد كان الناصر قد أنشأ زريبة [٣] له قبلى الجامع الطيبرسى [٤] فى أرض بستان

---

(١) نفسه.

(٢) الخطط التوفيقية (ط ١٩٨٧م)، جـ٢، ص ١٦٢ـ ١٦٣، ملحوظة: استعملت هذه الطبعة الجديدة من الخطط التوفيقية من الأجزاء الثمانية الأولى وطبعة بولاق القديمة (١٣٠٤ ـ ١٣٠٦هـ) فى باقى الأجزاء.

(٣) عمر الناصر محمد الزريبة قبلى جامع الطيبرسى وحفر لأجل هذه الزريبة البركة التى عرفت باسم البركة الناصرية ليستعمل طينها فى بناء الزريبة، وأنشأ فوق هذه الزريبة دار وكالة وربعين عظيمين جعل أحدهما وقفا على الخانقاه التى أنشأها بناحية سرياقوس، وأنعم بالآخر على الأمير بكتمر الساقى، فأنشأ الأمير بكتمر بجواره حمامين أحدهما برسم الرجال والآخر برسم النساء. انظر: المقريزى، الخطط، جـ٢ ـ ١٣٢، المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٣٢، على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٣، ص ٢٢٦، ويمثل موقع الزريبة اليوم المنطقة الواقعة على النيل بجاردن سيتى المحصورة بين شارع ورشة التمباك جنوبا حتى شارع عبد القادر حمزة الذى به فندق شبرد شمالا.

(٤) جامع الطيبرسى ذكره المقريزى فقال « عمر هذا الجامع الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش بشاطئ النيل فى أرض بستان الخشاب وعمر بجواره خانقاة فى جمادى الأولى سنة ٧٠٧هـ، وكان من أحسن متنزهات مصر وأعمرها، وقد خرب ما حوله من الحوادث والمحن بعد سنة ٨٠٦هـ بعد ما كانت العمارة متصلة إلى الجامع الجديد بمصر ومنه إلى جامع الخطيرى ببولاق، ويركب الناس المراكب للفرجة =

الخشـــاب [1]، فعمر الأمراء والكتاب الدور الجليلة هناك فقد عمر المكين إبراهيم بن قزوينه ناظر الجيش جنوب زريبة الناصر محمد دار جليلة وعمر أيضا صلاح الدين الكمال والصاحب أمين الدين عبدالله بن الغنام وعدة من الكتاب فقيل لهذه الخطة منشأة الكتاب[2].

وظلت منشأة الكتبة عامرة حتى خربت ضمن ما خرب من خطط القاهرة فى الأزمات والمحن التى حدثت ابتداءا من سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م [3]، إلا أن تلك المحن لم تستمر طويلا فسرعان ما عاد للقاهرة رونقها بعد ذلك وشمل التعمير أرجاءها وعمر خط منشأة الكتبة من ضمن الخطط التى كانت على النيل عندما حفره المؤيد شيخ ما بين الجامع الناصرى وبين جامع الخطيرى سنة ٨١٨هـ [4].

وفى العصر العثمانى تحولت منشأة الكتبة للنشاط الزراعى فحفلت بالحقول والبساتين، وكانت من متنزهات القاهرة [5].

= من هذا الجامع إلى الجامعين المذكورين مصعدين ومنحدرين فى النيل، ويجتمع بهذا الجامع الناس للنزهة فتمر به أوقات ومسرات لا يمكن وصفها، وقد خرب هذا الجامع واقفر من المساكن وصار مخوفا بعد ما كان ملهى وملعبا»، الخطط، جـ٢، ص ٣٠٤. وقد حقق المرحوم الأستاذ محمد رمزى موقع هذا الجامع وقال أنه شاهد بنفسه الخانقاة التى كانت بجواره والتى كانت معروفة باسم جامع الأربعين، وهذا الموقع تشغله الآن عمارة سكنية تقع بين فندق سميراميس وجامع عمر مكرم، فى شارع كمال الدين صلاح (الشيخ بركات سابقا)، وهذا الموقع موقع على خريطة القاهرة للآثار الإسلامية (لوحة١) قبل هدمه باسم جامع الشيخ منصور وبركات. انظر: تعليق محمد رمزى على النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ١٩٨.

(١) عن بستان الخشاب، انظر مايلى، ص ٥١.

(٢) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٣٢.

(٣) هذه المحن والحوادث التى مرت بها مصر ابتداءا من سنة ٨٠٦هـ، وكان لها تأثير كبير على القاهرة وأدت إلى خراب بعض أحيائها وخططها، كان مردها إلى انخفاض النيل بدرجة كبيرة فى ذلك الوقت مما أدى إلى حدوث أزمات اقتصادية كبيرة وحدوث غلاء فى الأسعار، وصاحب ذلك أوبئة أثرت على خفض ثلث سكان القاهرة، كما أن النيل انحسر وتقلص نحو الغرب فانكشفت أراضى كثيرة وعلا الرمل على شاطئه الشرقى وبعد الماء عن القاهرة فتأثرت الخطط التى كانت واقعة على النيل، من الأسباب الهامة لتلك الأزمات أيضا ازدياد الفتن والاضطرابات والصراعات الداخلية بين طوائف المماليك، إلى جانب الفساد السياسى والأخلاقى الذى تمثل بصفة كبيرة فى اغتصاب الأملاك والأوقاف وكان المغتصبون يهدمون تلك المبانى والدور ويبيعون انقاضها مثلما حدث للرباع والدور والوكائل التى كانت بجوار جامع الطيبرسى بخط زريبة قوصون وامتد إلى جميع الدور والمناظر الممتدة على النيل وصار الساحل من منشأة المهرانى إلى قرب بولاق كيمانا موحشة وخرائب مقفرة، الإضافة لذلك كانت الدولة التيمورية تهدد المماليك، وعانت الشام منهم معاناة كبيرة، وكانت هذه المحن والأزمات هى التى دفعت المقريزى لكتابة كتابه «اغاثة الأمة فى كشف الغمة». انظر: المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٣١، السلوك، جـ٣، ص ١١٢٧، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١٣، ص ١٥٢.

(٤) انظر ما سبق، ص ٢٥.

(٥) انظر خريطة نيبور للقاهرة، وكذلك خريطة الحملة الفرنسية.

وعن موقع منشأة الكتبة الآن أرى أنها كانت واقعة خلف زريبة الناصر محمد التى كانت تقع خلف جامع الطيبرسى الذى كان يقع بجوار جامع عمر مكرم الآن، كما كانت منشأة الكتبة متصلة بمنشأة المهرانى من جانبها الجنوبى.

فعلى ذلك فموقعها يشغله اليوم الجزء الجنوبى الشرقى من حى جاردن سيتى وجزء من حى المنيرة فى المنطقة المحصورة فيما بين شارع الدكتور حندوسة (شارع مستشفى اللادى كرومر سابقا) وشارع بستان الفاضل الذى فى امتداده جنوبا، وبين شارع عائشة التيمورية (شارع الوالدة باشا سابقا) وما فى امتداده شمالا (شكل ١٠).

(٤) خط موردة البلاد والميدان السلطانى:

يلى هذا الخط خط منشأة المهرانى ومنشأة الكتبة، وقد ذكره المقريزى فى عدة مواضع [١]، وأن أرض هذا الخط كانت جزءا من بستان الخشاب [٢]، وكان فم الخليج الناصرى الذى حفره الناصر محمد سنة ٧٢٥هـ يقع فى موردة البلاط [٣] كما كان الميدان الناصرى السلطانى الذى أنشأه أيضا الناصر محمد سنة ٧١٨هـ من جملة خط موردة البلاط [٤].

---

(١) الخطط، جـ٢، ص ١٤٥، ١٤٨، ٤٣٢.

(٢) بستان الخشاب كان بستانا كبيرا زمن الدولة الأيوبية، ثم قسم لعدة خطط وبساتين فى العصر المملوكى، وكان يشغل مساحة كبيرة من الأرض يمكن تحديدها بالحدود الآتية: كان الحد الغربى متمثلا فى نهر النيل والحد الجنوبى يبدأ من كوبرى القصر العينى (محمد على سابقا) وشارع الدكتور حندوسة (شارع مستشفى اللادى كرومر سابقا) وشارع بستان الفاضل وما فى امتداده حتى مقام المواردى بشارع الخليج المصرى حيث كانت هناك قنطرة السد، وكان الحد الشرقى يسير بعضه مع الخليج وبعضه الآخر فى اتجاه مستقيم إلى موضع قصر عابدين حاليا، والحد الشمالى يتمثل فى أحد الشوارع التى تصل بين ميدان عابدين وميدان التحرير.

وكانت أرض بستان الخشاب مقسمة فى العصر المملوكى إلى قسمين، القسم الشرقى منهما هو الواقع بين شارع المنيرة وشارع الخليج المصرى (بورسعيد) وكان يعرف بالمريس نسبة إلى أن كثيرا من السودان المريس والنوبة كانوا يسكنون هذا المكان فعرف بهم وكانوا يصنعون به المزر وهو نوع من البوظة يسمى المريسى، وكان المريس فى غاية العمارة وكان يرتاده أهل الخلاعة وطالبى المتعة والمتنزهين. أما القسم الغربى الذى بين شارع المنيرة والنيل فكان يضم خط موردة البلاط والميدان السلطانى وأول الخليج الناصرى. انظر: المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٠٩، ١١٣، ١١٤، ١٣١، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٣٠٣، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٤، ص ٤٤، جـ٧، ٣٨٨، ٣٨٩، جـ٩، ص ٨١، ١٩٦، حاشية (١).

(٣) الخطط، جـ٢، ص ١٤٥، كان فم الخليج الناصرى يقع فى النقطة التى يتقابل فيها اليوم عائشة التيمورية بشارع كورنيش النيل بجاردن سيتى بالقاهرة.

(٤) عن الميدان السلطانى انظر ما يلى، ص ٢٦٤.

ومما ذكره «المقريزى» يتبين لى أن خط موردة البلاط على النيل كان مقسما عدة أرصفة متجاورة يختص كل منها بنوع معين من البضاعة وهى موردة البلاط وموردة الملح [١] وموردة الجبس [٢] وغير ذلك.

وموقع خط موردة البلاط والميدان السلطانى يشغله الآن جزء من حى جاردن سيتى على امتداد النيل من شارع عائشة التيمورية (الوالدة باشا سابقا) جنوبا حتى شارع عبد القادر حمزة شمالا (شكل ١١).

وقد عمر هذا الخط عمارة كبيرة فى العصر المملوكى ولا سيما فى فترة حكم الناصر محمد حيث كثر العمران والبناء على النيل فاتصلت المبانى من أثر النبى جنوبا حتى بولاق شمالا. وبالرغم من بعض المحن التى حلت بتلك الخطط التى على النيل فى بعض فترات فى العصر المملوكى، إلا أن العمران سرعان ما يعود إليها مثلما حدث أيام الملك المؤيد شيخ وما تلاه.

وقد غلب على خط موردة البلاط والميدان السلطانى النشاط الزراعى فى العصر العثمانى حيث وقعت تلك المنطقة على خريطة نيبور الذى زار مصر سنة ١١٧٦هـ/ ١٧٦٢م، وكذلك فى خريطة الحملة الفرنسية وكانت عبارة عن حقول وبساتين وقد تحول جزء منها إلى ميدان يسمى ميدان النشابة [٣] الذى أنشى فى العصر العثمانى بدلا من الميدان السلطانى الذى كان يقع غربيه والذى كان قد تحول للزراعة لأن أرضه كانت معرضة لطغيان النيل عليها، وقد تعرضت الجنائن والبساتين بتلك المنطقة، وكذلك بساتين مصر القديمة وغيرها التخريب على يد الحملة الفرنسية حيث قطعوا أشجارها ونخيلها [٤].

(٥) خط زريبة قوصون:

يلى هذا الخط خط موردة البلاط والميدان السلطانى، وأرضه نتجت عن طرح البحر الخامس سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م، وقد اتصلت تلك الأرض بأرض اللوق، وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد خرب ميدان الملك الظاهر بيبرس باللوق [٥] وجعله بستانا ثم وهب

---

(١) ذكر المقريزى أن موقع الميدان السلطانى بموردة الملح. الخطط، جـ٢، ص ١٣١.

(٢) ذكر المقريزى أن الميدان السلطانى على النيل ويعرف ساحل النيل هناك بموردة الجبس. الخطط، جـ٢، ص ١١٤. كما ذكر أن موردة البلاط تجاور موردة الجبس. الخطط، جـ٢، ص ١١٧.

(٣) سمى بهذا الاسم لاستخدامه فى تدريب الفرق العسكرية للرمى بالنشاب (السهام).

(٤) الجبرتى (عبد الرحمن بن حسن، ت ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥م)، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، (ط دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ)، جـ٢، ص ٤٣٨.

(٥) عن الميدان الظاهرى انظر ما يلى، ص ٣٧٨.

البستان للأمير قوصون [١] فأنشأ قدامه على النيل زريبة [٢]، فعمر الناس هناك حول الزريبة حتى اتصلت العمارة بموردة البلاط والميدان السلطانى من الجهة الجنوبية، واتصلت بحكر ابن الأثير وخط فم الخور وبولاق من الجهة الشمالية وبأرض اللوق من الشرق، وعمّر هناك حمام وسوق كبير وطواحين وعدة مساكن اتصلت باللوق، وأصبحت الخطط التى على طول النيل متصلة بالعمارة بدورها ومناظرها ومساجدها وخانقاواتها ومن وراءها الأزقة والشوارع والدروب حتى قاربت الخليج [٣].

وفى العصر العثمانى تحول هذا الخط إلى بساتين متجاورة كما ورد فى خريطتى نيبور والحملة الفرنسية.

وعن موقع خط زريبة قوصون نجده مشغولا اليوم بالمنطقة المحصورة بين ميدان سيمون بوليفار (قصر الدوبارة سابقا) بجاردن سيتى وبين ميدان عبد المنعم رياض، وكانت الزريبة نفسها تقع فى موقع المتحف المصرى بميدان التحرير (شكل ١٢).

(٦) خط فم الخور وحكر ابن الأثير:

يلى هذا الخط خط زريبة قوصون، وأرضه ناتج طرح البحر السادس والسابع، وقد سمى بهذا الأسم نسبة إلى خليج فم الخور الذى أمر بحفره الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٤هـ [٤]، وكان فمه على النيل بميدان عبد المنعم رياض الآن، وكان مساره بأول شارع رمسيس، ونتيجة لذلك امتد العمران على جانبيه وبنيت فيه الدور والمناظر الجليلة الوصف التى تشرف على النيل ومن وراءها البساتين ويفصل بينهما شارع مسلوك يؤدى إلى بولاق،

---

(١) الأمير قوصون، كان من أعظم أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون وأقرب الأمراء المقربين إليه، كان ساقيه ثم ترقى بسرعة كبيرة حتى بلغ أعلى رتبة من رتبة المماليك وهى أمير مائة مقدم ألف، وكان له نفوذ كبير وتحكم فى الدولة، وعقب وفاة الناصر محمد فى ذى الحجة ٧٤١هـ دخل قوصون فى صراع مع بعض الأمراء فكانت نهايته القتل سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م وكان محبا للعمارة وله من الآثار بالقاهرة جامعة الذى يعرف اليوم بجامع قيسون (أثر رقم ٢٠٢) بشارع محمد على ووكالة بالجمالية (أثر رقم ١١) وكان له خانقاة وجامع باق منه مئذنته (أثر رقم ٢٩٠) بقرافة السيوطى وكان له دار واصطبل كبير بالرميلة بجوار مدرسة السلطان حسن، وكان له حكر بجوار قناطر السباع بالسيدة زينب حاليا. عنه بالتفصيل انظر: المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٧٢، ٩٣، ١١٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٢٥، ٤٢٥، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ٩٥، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠٧، جـ١٠، ص ٤٥، ٤٨، على مبارك، الخطط التوفيقية، (ط ١٩٨٦)، جـ٥، ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٢) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٩٨. على مبارك، الخطط التوفيقية، جـ٣، ص ٢٢٥، ٢٥٤.

(٣) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٤) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٤٤. وعنه بالتفصيل انظر ما يلى، ص ٣١٠.

وقد انشى هناك حمام وجامع وسوق وسكن ذلك الخط الأكابر من الوزراء والأعيان وكان به من الدور العظيمة ما يفوق الوصف [١]. وكان للسلاطين والأمراء فى العصر المملوكى هناك بساتين مثمرة بكافة أنواع الفواكه والثمار مثل بستان السلطان برسباى [٢] وغيره.

أما حكر ابن الأثير فينسب إلى القاضى علاء الدين بن الأثير الذى كان يشغل وظيفة كاتب السر فى زمن السلطان محمد بن قلاوون، وكان قد بنى دارا له على النيل وبنى الناس بجواره فعرف ذلك الخط بحكر ابن الأثير [٣].

وكان هذا الحكر يشغل الجزء الجنوبى من خط فم الخور وقد اتصلت العمارة من حكر ابن الأثير إلى خط فم الخور ومن خط فم الخور إلى بولاق [٤]، وفى العصر العثمانى حفلت المنطقة ببساتين الأمراء الكبار ومناظرهم الجميلة [٥].

ويشغل خط فم الخور الآن المنطقة الواقعة بين ميدان عبد المنعم رياض جنوبا حتى اتصالها ببولاق بالقرب من شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) شمالا، وكان النيل يحدها غربا ويمثل شارع رمسيس حدها الشرقى، ويشغل مكان حكر ابن الأثير الآن المنطقة التى تحد غربا بشارع ساحل الغلال الموصل الآن بين شرق فندق هيلتون رمسيس وبين مبنى الإذاعة والتليفزيون حيث كان النيل يجرى فى ذلك المسار أيام الناصر محمد [٦]، وكان يحده جنوبا وشرقا شارع الجلاء (الترعة البولاقية سابقا) (شكل ١٣).

(٧) بولاق:

تلى بولاق خط فم الخور وحكر ابن الأثير، وقد تكونت نتيجة طروحات النيل المتوالية وبصفة خاصة الطرح الخامس سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م، وكانت مثل تلك الأراضى فى مبدأها تكون لينة وغير متماسكة، وكانت عبارة عن هيئة جزر صغيرة تغطيها الرمال وتحيط بها البرك وتنمو بها الحلفاء والبوص ومع الزمن تتصل ببعض حتى تتكون كأرض متصلة تجف بعد ذلك وتصلب وتكون صالحة للبناء عليها أو الزراعة بها، وهكذا تكونت أرض بولاق واتصلت من

---

(١) نفسه، ص ١٣١.

(٢) كتاب وقف السلطان برسباى رقم ٨٨٠ أوقاف، ص ١٣٥ ـ ١٣٦، أحمد دراج، حجة وقف الأشرف برسباى، نشر المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، (القاهرة، سنة ١٩٦٣)، ص ٣٩ ـ ٤٠.

(٣) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٣١.

(٤) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٣١. ابن تغرى بردى، النجوم، جـ٩، ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٥) انظر على سبيل المثال كتاب وقف الأمير عثمان كتخدا رقم ٢٢١٥ أوقاف، ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٦) محمد رمزى، تعليقه على النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ١٨٤.

جنوبها وجنوبها الشرقى بأرض اللوق، ومن شمالها بجزيرة الفيل (أرض شبرا وروض الفرح الآن) ومن شرقيها المقس (الأزبكية الآن)[1]. ومع الزمن كانت تظهر أمام بولاق جزر أخرى أما تتصل بها أو تتصل بالجزيرة الوسطى أمامها، أو تختفى بعد ذلك، ومن أمثلة ذلك الجزيرة التى ظهرت سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م وأغلب الظن كما يفهم من نص «ابن إياس» أنها اتصلت ببولاق بعد ذلك[2].

استغلت الأرض بولاق بعد تكوينها مباشرة كملاعب وميادين لتدريب المماليك السلطانية للرمى بالنشاب فى تلال الرمال هناك، ثم بدأ العمران فيها من سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م فى النهضة العمرانية العظيمة بمصر التى قادها الناصر محمد بن قلاوون، وتسابق الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة فى البناء عليها بالإضافة إلى الزراعة وغرس البساتين المثمرة بها[3]. وتردد الناس عليها للنزهة وصارت من أجمل وأعظم متنزهات مصر واعتبرها المؤرخ «ابن ظهيرة» من محاسن وفضائل مصر التى اختصت بها مصر والقاهرة، وما شاركها فيها غيرها بما تضم من قصور ومناظر ومساكن جليلة ممتدة على شاطئ النيل[4]، وقد كانت قد شهدت نهضة عمرانية كبيرة بها منذ فترة حكم المؤيد شيخ بعد الأزمات والمحن التى حلت بالقاهرة منذ سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م.

وتبدو بولاق كما وردت فى خريطة الحملة الفرنسية (شكل ١٤) كمدينة صغيرة (ضاحية) منفصلة عن القاهرة، وتبدو على هيئة مثلث ذو قاعدة دائرية على النيل ويمتد لمسافة ٢١٠٠ متر ارتفاع المثلث ٦٠٠متر، ويفصلها عن القاهرة سهل عرضه ١٢٠٠ متر، وعدد من البساتين، وقد قدر عدد سكانها بأربع وعشرين ألف نسمة، وكانت ميناء بولاق من أعظم موانئ مصر لما لها من أهمية كبيرة فى انتعاش تجارة مصر الداخلية والخارجية، وقد سجل الفرنسيون بها ٢٤ مسجدا وعددا كبيرا من الوكالات من بينها ٣٠ وكالة رئيسية أغلبها أكثر اتساعا وأجمل من وكلات القاهرة[5].

وقد اتصلت بولاق بأحياء القاهرة بواسطة طريقين احدهما يربطها بالمقس وكانت تظلله الأشجار (شارع السبتية الآن) والآخر يصلها بالأزبكية وهو الذى قام المسيو لوبير أحد مهندسى الطرق بالحملة الفرنسية باصلاحه وغرس الأشجار على جانبيه وهو الذى يمثله الآن شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا).

---

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ٣٠٧. (٢) بدائع الزهور، جـ٤، ص ١١٠ ـ ١١١.

(٣) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٣١.

(٤) الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، ص ٢٠٢.

(٥) جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة القاهرة، ترجمة وتحقيق أيمن فؤاد سيد، (نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة، ١٩٨٨م)، ص ٣٤٢.

وذكر المرحوم «محمد رمزى» أيضا أن بولاق قد وقعت على خرائط القاهرة المرسومة حتى سنة ١٨٥٨م كبلدة صغيرة واقعة على النيل كانت مبانيها محصورة بين شارع السبتية من الشمال ومن الجنوب بشارع اصطبلات الطرق ومن الشرق شوارع العليمى وعلوة الحجاج وتل نصر ووابور النور، وكانت الأرض التى بين بولاق القديمة وبين شارع رمسيس كلها أرضا زراعية وبساتين ولم تحدث فيها المبانى إلا فى زمن الخديوى إسماعيل (١٢٨٠ ـ ١٢٩٦هـ/ ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩م) ففى ذلك الوقت اخذت بولاق تتسع فى العمارة حتى اتصلت مبانيها بالقاهرة وأصبحت بولاق قسما إداريا من اقسامها [١].

(٨) جزيرة الفيل :

جزيرة الفيل ظهرت فى زمن الدولة الأيوبية نتيجة غرق مركب كبير يسمى الفيل فى نهر النيل، فترك فى مكانه، فربا عليه الرمل، وأخذ النيل ينحسر حوله فصارت جزيرة يحيط بها الماء من كل جانب فيما بين منية السيرج وأرض الطبالة (الفجالة حاليا) سماها الناس جزيرة الفيل، وظلت تنمو وتتسع كل عام بما يضاف إليها من الطمى الذى حمله ماء النيل، وقد زرعت فى أيام الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى (٥٦٧ ـ ٥٨٩هـ/ ١١٧٢ ـ ١١٩٣م) فوقفها على المدرسة التى أنشأها بالقرافة بجوار قبر الشافعى رضى الله عنه، وكثرت اطيانها بانحسار النيل عنها فى كل عام [٢].

وفى سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١ فى أثناء سلطنة الملك المنصور قلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٩هـ/ ١٢٧٦ ـ ١٢٨٧م) ازداد انحسار النيل لأرض اتصلت بأرض الجزيرة شمالا بمنية السيرج وجنوبا بالمقس (الأزبكية) فأوقفت تلك الأراض الزائدة على المارستان المنصورى، وغرس الناس بها الغروس وصارت بساتين وسكن كثير من المزارعين بها [٣].

وفى مدة سلطنة الناصر محمد بن قلاوون انحسر النيل من جانب المقس الغربى وصار ما هنالك رمالا متصلة من بحريها بجزيرة الفيل ومن قبليها بأراضى اللوق، وحينئذ عمرت بولاق خارج المقس، وأنشأوا بجزيرة الفيل ابسباتين والقصور والدور حتى لم يبق بها مكان بغير عمارة وحكر على ما كان فيها وقفا على مدرسة صلاح الدين وما كان من وقف المارستان وغرس ذلك كله بساتين فزادت عن مائة وخمسين بستانا إلى سنة وفاة الملك الناصر محمد

---

(١) محمد رمزى، تعليقه على النجوم، جـ٧، ص ٣٠٨، وعن بولاق بالتفصيل، انظر: Hanna, (N), An Urban History of Bulaq in the Mamlak and Ottoman Periods, Supp. Aux Annales Islamologiques - Chier N.3, Le Cairo IFAO, 1983.

(٢) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٨٥.

(٣) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٨٥.

(٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) بعدما كانت عشرين، ونصب فيها سوق كبير وبنى فيها الناس الدور الكثيرة الفخمة وجامعًا فبقيت قرية كبيرة وما زالت تنمو حتى اتصلت عمارتها بمنية السيرج[١].

وكان الجامع الرئيسى لزيرة الفيل هو جامع الفخر[٢] ناظر الجيش فى زمن الناصر محمد بن قلاوون.

وقد تعرضت جزيرة الفيل فترة للمحن والأزمات التى مرت بمصر فترة وعبر عنها «المقريزى» بقوله «وأما بساتين الجزيرة فلم تزل عجبا من عجائب الدنيا من حسن المنظر وكثرة المتحصل إلى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة فتلاشت وخرب كثير منها لغلو العلوفات من الفول والتبن وشدة ظلم الدولة، وتعطل معظم سوقها وفيها إلى الآن بقية صالحة»[٣].

ولكن جزيرة الفيل حظيت بالعناية والرعاية بعد تلك المحن وانتشرت البساتين بها مرة أخرى، وصارت من أعظم متنزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى، ففى العصر المملوكى كانت تقام ببساتينها الأمسيات والاحتفالات وجلسات الطرب والأدب[٤]، وكان

(١) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٨٥ ـ ١٨٦، السلوك، جـ٢، ص ٥٣٩، ابن دقماق، الانتصار، جـ٥، ص ٤٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ٣٤٧، السيوطى، حسن المحاضرة، جـ٢، ص ٢٩٧.

(٢) الفخر هو أحد المسالمة واسمة فخر الدين محمد بن فضل الله القاضى ناظر الجيش المعروف بالفخر، كان نصرانيا فأسلم وحسن اسلامه، وقد تولى أعلى الوظائف الكتابية فى زمن الناصر محمد بن قلاوون، وكان حسن السيرة محبا لأعمال الخير فقد بنى الكثير من المنشآت الاجتماعية، فقد بنى بمصر عدة أحواض ماء للسبيل وبنى مارستانا بالرملة بالشام ومارستانا ببلبيس، بالإضافة لبناء قنطرة على فم الخليج الناصرى المجاور للميدان السلطانى بموردة الجبس وقنطرة أخرى على خليج مجاور له.
بالإضافة لذلك فقد بنى ثلاثة جوامع عظيمة هى جامعة هذا بجزيرة الفيل والثانى ببولاق والثالث بجزيرة الروضة (جامع قايتباى حاليا). وقد توفى الفخر فى رابع عشر من رجب ٧٣٢هـ وله من العمر ما ينيف على سبعين عاما. انظر: المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣١١.
وجامع الفخر بجزيرة الفيل هو الآن المعرف بجامع سيدى فرج المجذوب، وقد جدده محمد بك طاهر ابن أحمد باشا طاهر فى سنة ١٢١٨هـ بشارع جزيرة بدران وتطل واجهته الرئيسية على شارع جنينة المناخ بينما تطل واجهته الجانبية على عطفة سيدى فرج المجذوب. انظر: محمد رمزى، تعليقه على النجوم الزاهرة، جـ٩، ص ٢٠١.
شاهنده فهمى، جوامع ومساجد أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، دكتوراة «مخطوطة»، (كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٧م)، ص ٢٨٧.

(٣) المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ١٨٦.

(٤) على سبيل المثال كان لابن باباى العواد أحد ندماء الملك المؤيد شيخ ومغنيه بستان بجزيرة الفيل، وقد وصف المؤرخون ابن باباى بأنه كان اعجوبة زمانه فى ضرب العود والغناء. انظر: المقريزى، السلوك، جـ٤، ص ٤٧٦، ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، جـ١، ص ٥٨.

يتردد عليها علية القوم كالقضاة والعلماء [١] والجدير بالذكر أنه كان للسلطان المؤيد شيخ بستان بخط جزيرة الفيل به مختلف الأشجار من بلح وجميز ونارنج وتين وغير ذلك بالإضافة إلى منظرة وسواقى [٢]، وكان الأمير أزبك بن ططغ الاتابكى يملك بستانا بجزيرة الفيل غرس به النخل والمشمش والتوت والليمون والنارنج والأترج والسنط وغير ذلك مما دار عليه من السياج وما به من الآلات والسواقى [٣].

وكانت الدور بجزيرة الفيل على درجة عظيمة من العمارة والزخرفة، وكانت مسكنا للأمراء الكبار والوزراء [٤].

وظلت الجزيرة الفيل حافلة بالبساتين طوال العصر العثمانى وظلت محتفظة بأسمها كما يتضح لنا من كتاب وقف الأمير عثمان كتخدا القاردوغلى المؤرخ بسنة ١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م والذى كان يملك قطعتى أرض كبيرتين مزروعتين بها [٥].

وجزيرة الفيل تمثل الآن قسم شبرا من القاهرة والجزء الجنوبى منها يعرف بجزيرة بدران، وكانت جزيرة الفيل تشغل المنطقة التى يتوسطها الآن شارع شبرا من الجنوب للشمال ويحدها من الغرب النيل حيث شارع أبو الفرج وشارع جسر طراد النيل حاليا ويحدها من الجنوب شارع جزيرة بدران وشارع بركات، ومن الشرق خط السكة الحديد التى حلت محل سيالة المياه التى كانت فاصلة بين هذه الجزيرة والشرابية ومنية السيرج ثم طمت فى سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م (شكل ١٦).

وبالاطلاع على خريطة الحملة الفرنسية يتبين أن أرض قسم شبرا كانت أرضا زراعية وبها الكثير من البساتين ومجموعة قليلة من المساكن بجزيرة بدران، ولم تستجد بها المبانى إلا فى عهد الخديو إسماعيل حيث أنشأ بها قصر النزهة (المدرسة التوفيقية الآن)، ثم تبعه الأعيان وكبار التجار فأنشأوا فيها القصور والبساتين على جانبى شارع شبرا ثم أخذت العمارة فى الازدياد والاتساع إلى أن امتدت المبانى إلى شاطئ النيل والسكة الحديدية وترعة الإسماعيلية [٦].

---

(١) انظر على سبيل المثال ترجمة القاضى جمال الدين بن عمر على الطنبدى المعروف بابن عرب الشافعى المتوفى سنة ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢ فى : ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى، ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، (نشر مكتبة القدسى سنة ١٣٥١) جـ٢، ص ٢٦٠.

(٢) وثيقة المؤيد شيخ رقم ٩٣٨ أوقاف سطور ١٩٨ ـ ٢٠٢، نشر فهمى عبد العليم، العمارة الإسلامية بمصر فى عصر السلطان المؤيد شيخ.

(٣) وثيقة الأمير أزبك بن ططغ رقم ١٩٨ المحفوظة بدار الوثائق القومية.

(٤) ذكر ابن حجر على سبيل المثال أن ناصر الدين محمد بن محمد الاسكندرانى المتوفى سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٣م كان واسع الثراء وقد عمر دارا عظيما بجزيرة الفيل استأجرها منه القاضى ناصر الدين البارزى كاتب السر فى دولة المؤيد فشيدها واضاف عليها مبانى عظيمة إلى أن صارت دار مملكة أقام بها المؤيد مدة. انظر: انباء الغمر، جـ٣، ص ٣٢.

(٥) كتاب وقف الأمير عثمان كتخدا القازدوغلى رقم ٢٢١٥ المحفوظ بوزارة الأوقاف، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٦) محمد رمزى، تعليقه على النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.